الأدب المثمن

أحمد عبد الله الدامغ

الجزء الثامن



مركز سعود البابطين الخيري للتراث والثقافة
قسم الدراسات والبحوث والنشر
الرياض ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

ح احمد عبدالله الدامغ، ١٤٢٤ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدامغ ، احمد بن عبدالله
الادب المثمن / احمد بن عبدالله الدامغ - الرياض، ١٤٢٤ هـ
١٦ مج. ، ٣٣٦ ص ، ١٧ X ٢٤ سم
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)
١- الادب العربي - مجموعات أ- العنوان
ديوي ٨، ٨١٠ ١٤٢٤/٢٧٧٣

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢٧٧٣
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)

المملكة العربية السعودية ص.ب ٩٣٩٢٧ الرياض ١١٦٨٣ هاتف ٤٨٧٠٥١٣
فاكس ٤٨٧١٤٢٧/٢٦
الموقع على الأنترنت
www.albabtain-center.com
البريد الألكتروني:
E-mail: info@albabtain-center.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تنويـــه

أيها القارئ الكريم.. لعلك قد أدركت من خلال قراءتك الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب ـ الأدب المثمن ـ أنني أذيّل أو أضمن كل موضوع من الموضوعات بشيء من الشعر. والتزمت بأن آتي بثمانية أبيات لكل موضوع.. وأستشهد بشعر لشعراء معاصرين وغير معاصرين. ومشهورين وغير مشهورين. وهذا شيء فرضه علي منهج التأليف من ناحية. وعند السؤال عن مكانة الشاعر في عالم الشعر من ناحية أخرى. لأن الذي يهمني أن تكون الأبيات مؤيدة للخاطرة التي ولدت الموضوع هذا من جهة ومن جهة أخرى أرى أن لا أقف على الاستشهاد بالشعر على شعر عصر معين من العصور ولا فئة معينة من الشعراء. هذا والله من وراء القصد.

أحمد عبد الله الدامغ

كدت أخسر الرهان لولا تاج العروس واللسان!!

في ليلة من ليالي الشتاء الباردة. التفّ حول النار بعض الأصدقاء. وقد كنت من بينهم. ولما انتهى الحطب ولم يعد للنار لسان ولهب. قلت لأحدهم: ـ ابعق الجمر ليزداد وهجه.. وكان قصدي أن يَفْرِي كومة الجمر لئلا يعلوها الرماد ـ فضحك من سماعه...

ابعق وأعادها إعادة المستغرب ـ أو المنكر بالأصح لصحة لغتها. فقلت: أظنك أنكرت علي قولي ـ ابعق الجمر ـ قال: نعم. قلت: ـ أحسبها لغة صحيحة فأنا منذ الصغر وأنا أسمعها من الأجداد والآباء. ولا زالت عالقة في ذاكرتي. وتأتي دائماً على لساني لكنني ما سجلتها قط بقلمي فيما كتبته حتى الآن. ونحن في نجد أو في معظم نواحي نجد لغتنا سليمة. وإن شابها شيء فهو تصحيف طفيف.. قال: قد يكون هذا. إلّا.. ابعق... قلت: وكذلك. ابعج فهي مرادفة لها فيما تعنيه من عمل حركي.. وحصل رهان على صحة ـ ابعق ـ وكان الحكم بيننا بالطبع المعاجم اللغوية.. ـ فعمدت إلى ـ لسان العرب لابن منظور ـ وتاج العروس للزبيدي ـ فوجدتهما قد أتيا على ذكر ـ بعق ـ وتوسعا في ذكر مجازاتها وما اشتمل عليه معناها. فقال كل منهما: البعق. والبعج: الشق. وبعقت زق الخمر تبعيقاً: أي شققته. فتنفست الصعداء كما يقولون حيث صح أن معنى أبعق: شق ـ وإن طلبي إلى ذلك الشخص بأن يبعق النار هو بلغة صحيحة ومتفق مع القصد.

ولا بأس هنا أن أذكر أشياء من تفصيل المعنى الذي اشتملت عليه لفظة ـ بعق ـ في اللسان وفي التاج معاً: فالبعاق شدة الصوت. والباعق أيضاً المؤذن ويعني بذلك ترجيعه. وانبعق الشيء: اندرأ فجأة وأنت لا تشعر... ـ

وقيل الباعق المطر يفاجئ بوابل. وقيل سيل باعق. أي يجرف كل شيء. ويقال بعق الناقة. أي نحرها. وقال عمر رضي الله عنه: الانبعاق فيما لا ينبغي من شقاشق الشيطان. وفي الحديث الشريف: ـ إن الله يكره الانبعاق في الكلام فرحم الله امرأً أوجز في كلامه. ويقال: أنبعق انبعاقاً.

ومن الشواهد على ذلك من الشعر قول رؤبة في مدح مروان بن محمد بن الحكم:ـ

وجـــود مـــروان إذا تـــدفـــقـــا

جـود كـجـود الـغـيـث إذ تـبـعـقـا

وقوله أيضاً في موضع آخر:

يـردن تـحـت الإثـل سـيـاح الـدسـق

أخـضـر كـالـبـرد غـزيـر الـمـنـبـعـق

وقال آخر:ـ

تيممت بالكديون كي لا يفوتني

من المقلة البيضاء تقريط باعق

ويقول أبو هلال العسكري:

بـرق يـطـرز ثـوب الـلـيـل مـؤتـلـق

والـمـاء مـن نـاره يـهـمـي ويـنـبـعـق

تـوقـد فـي أديـم الـغـيـث حُـمْـرَتـه

كـأنـهـا غـرة فـي الـطـرف أو بـلـق

ويقول آخر:

بـيـنـمـا الـمـرء آمـنـا راعـه را

ئعُ حـتـف لـم يـخـش مـنـه انـبـعـاقـه

أخيراً لا نملك القول: اللهم إنك عليم فعلمنا. واجز علماء لغتنا خير الجزاء.

أبو دلامة يشرب من إناء الحطيئة في هجاء نفسه!!

وعندما نريد الكتابة عن الفكاهة ومفهومها ومالها من تأثير في الأجزاء المكتئبة فإن الحديث سيتشعب بنا ويأخذ اتجاهات أصلية في معنى الفكاهة وفرعية وهامشية في شكلها العام خاصة إذا أردنا البحث في أسلوب تأثير الفكاهة المكتوبة. والمعدودة إعداداً مسبقاً.. وإن نحن تجاوزنا ذلك ألزمنا البحث في كيفية عرضها والشخصية التي تعد الأداة المهمة في بثها وما إلى ذلك من الأشياء التي تحدد نوع الفكاهة. ومعرفة طبيعة المكان الذي تلقى فيه والأذن التي تتلقفها. ولقد كان لي وقفات مع الفكاهة بشكل عام في موضوعات متفرقة في الأجزاء التي تقدمت هذا الجزء.. وما هذا الموضوع وما سيليه إلّا امتداد لما تقدم.. حيث تجدر بنا الإشارة إلى أن أبا دلامة واسمه زند بن الجون وقد ذكرت جانباً من حياته وبعض ما توفر لي من معلومات عنه - في الجزء الرابع من هذا الكتاب - تحت عنوان «أبو دلامة هو زند بن الجون» أقول: تجدر الإشارة إلى أن أبا دلامة يعد واحداً من ألمع الشخصيات الفكاهية والنادرة وقطب من أقطابها الذين خلفوا لنا أدباً فكاهياً لم يزل حياً يضحك منه السامع له في يومنا هذا.

كيف لا وهو بالإضافة إلى سرعة البديهة في صياغة النادرة يعد شاعراً له لمسات مضحكة وأخرى لاذعة وموجعة.

وأبو دلامة من الشعراء الذين هجوا أنفسهم وسخروا منها. وكأنما هو في هذا المجال قد شرب هو والحطيئة الذي يقول في وصف وجهه «أرى لي وجهاً شوّه الله خلقه» في إناء واحد. اسمعه وهو يقول:

ألا أبـلـغ لـديـك أبـا دلامـة

فـلـيـس مـن الـكـرام ولا كـرامـه

إذا لـبـس الـعـمـامـة كـان قـرداً

وخـنـزيـراً إذا نـزع الـعـمـامـه

جـمـعـت دمـامـة وجـمـعـت لـؤمـا

كـذاك الـلـؤم تـتـبـعـه الـدمـامـه

فـإن تـك قـد أصـبـت نـعـيـم دنـيـا

فـلا تـفـرح فـقـد دنـت الـقـيـامـه

ويعلن في موضع آخر جبنه وخوفه من القتال معللاً ذلك بأنه ليس له نفسان يقاتل بواحدة ويبقي أخرى يعيش بها إذا قتلت التي قاتل بها. وهذا أسلوب بطبيعته فكاهي.

ألا لا تـلـمـنـي إن هـربـت فـإنـنـي

أخـاف عـلـى فـخـارتـي أن تـحـطـمـا

فلو أنني أبتاع في السوق مثلها

وجـدك مـا بـالـيـتُ أن أتـقـدمـا

وأيـتـم أولاداً وأرمـل نـسـوة

فـكـيـف عـلـى هـذا تـرون الـتـقـدمـا

ولـو كـان لـي نـفـسـان كـنـت مـقـاتـلاً

بـإحـداهـمـا حـتـى تـمـوت فـأسـلـمـا



أبو دلامة وزوجته يتفقان على خداع الخليفة!!

ومن الظرفاء من يتفق مع زوجته على صنع النوادر المضحكة والطرائف التي يتكسبون بها.

وإذا ما أردنا ذكر شخصيات لها تاريخ في هذا النوع من الأدب. فليس أقرب من أبي دلامة وزوجه إذ هما متفقان على استدرار أكف الأمراء والأغنياء بأسلوب فكاهي حتى وإن هجا أحدهما الآخر.. قال صاحب كتاب «معاهد التنصيص على شواهد التلخيص»: دخل أبو دلامة على المنصور فأنشده قصيدته التي أولها:

إن الخليط أجدّ البين فانتجعوا
وزوّدوكَ خبالا بئس ما صنعوا

إلى أن قال فيها يهجو زوجته:

لا والذي يا أمير المؤمنينَ قضى
لك الخلافة في أسبابها الرِّفَعُ

ما زلت أخلصها كسبي فتأكله
دوني ودون عيالي ثم تضطجع

شوهاء مشنيّة في بطها بجر
وفي المفاصل من أوصالها فدع

ذكرّتها بكتاب اللّه حرمتنا
ولم تكن بكتاب اللّه ترتدع

فاخرنطمت ثم قالت وهي مغضبة
أأنت تتلو كتاب اللّه يا لُكع

اخـرج لـتـبـغ لـنـا مـالاً ومـزرعـة
كـمـا لـجـيـرانـنـا مـال ومـزدرع

واخـدع خـلـيـفـتـنـا عـنـا بـمـسـألـة
إن الـخـلـيـفـة لـلـسـؤال يـنـخـدع

فضحك الخليفة وقال: أرضوها عنه واكتبوا لها ستمائة جريب عامرة وغامرة فقال: أنا أقطعك يا أمير المؤمنين أربعة آلاف جريب غامرة فيما بين الحيرة والنجف وإن شئت زدتك. فضحك وقال: اجعلوها كلها عامرة.

ويروى أن أبا دلامة اتفق هو وزوجته على خدعة الخليفة المهدي وزوجته الخيزران فذهب هو إلى الخليفة وقال: ماتت أم دلامة وليس عندي ما يجهز جنازتها فأمر له بعطية جزلة.. ولما خرج من عنده ذهبت أم دلامة للخيزران زوجة الخليفة وقالت: مات أبو دلامة وليس عندي ما أجهز به جنازته فواستها فيه وأعطتها عطية سنية فوق ما كانت تتوقع وانصرفت. ثم دخل الخليفة على زوجته وقال لها لقد ماتت زوجة أبي دلامة يرحمها الله قالت لا بل الذي مات أبو دلامة فقد أخبرتني بموته زوجته منذ لحظات. فضحك الخليفة وزوجته. من حيلة أبي دلامة وزوجته..



تحقيق في اسم دعبل وأسباب موته

هناك آراء متضاربة في أن دعبلاً اسم لذلك الشاعر العباسي الذي هجا مالك بن طوق فيمن هجا وذلك بقوله:

إن ابـن طـوق وبـنـي تـغـلـب
لـو قـتـلـوا أو جـرحـوا قَـصْـرَه
لـم يـأخـذوا مـن ديـة درهـمـاً
يـومـاً ولا مـن أرشـهـم بَـعْـرَه
دمـاؤهـم لـيـس لـهـا طـالـب
مـطـلـولـة مـثـل دم الـعُـذْرَه
وجـوهـهـم بـيـض وأحـسـابـهـم
سـود وفـي آذانِـهِـم صُـفْـرَه

فلما بلغت مالكاً طلبه ولما قبض عليه دعا بالنطع ليضرب عنقه. فجعل دعبل يتضرع إليه ويقبل الأرض ويبكي بين يديه فرق له. فقال: أما إذا أعفيتك من القتل فلا بد أن أشهرك. ثم دعا له بالعصي فضربه حتى سلح وأمر به فألقي على قفاه وفتح فمه. فرد سلحه فيه والمقارع تأخذ رجليه. وهو يحلف أن لا يكف عنه حتى يستوفيه ويبلعه أو يقتله مما رفعت عنه حتى بلع سلحه كله. ثم خلاه فهرب إلى الأهواز. وبعث مالك بن طوق رجلاً حصيفاً مقداماً وأعطاه سُمًّا وأمره أن يغتاله كيف شاء. وأَعطاه على ذلك عشرة آلاف درهم. فلم يزل يطلبه حتى وجده في قرية من نواحي السوس فاغتاله في وقت من الأوقات بعد صلاة العتمة فضرب ظهر قدمه بعكاز لها زج مسموم فمات من الغد

ودفن بتلك القرية وقيل بل حمل إلى السوس فدفن فيها.. وختم صاحب كتاب معاهد التنصيص هذه الحكاية بقوله: وكانت ولادة دعبل في سنة ١٤٨هـ ووفاته سنة ٢٤٦هـ لكن محمد بن أبي أيوب قال: دعبل اسمه ـ محمد ـ وكنيته أبو جعفر. ودعبل لَقب لُقب به.

وقد روي أن دعبلاً قال: كنت جالساً مع بعض أصحابنا ذات يوم فلما قمت سأل رجل لم يعرفني أصحابنا عني فقالوا: هذا دعبل. قال: قولوا في جليسكم خيراً. كأنه ظن اللقب شتماً.

ويروى أن دعبلاً قال: قال لي أبو زيد الأنصاري: مم اشتق دعبل؟ قلت: لا أدري قال: الدعبل الناقة التي معها أولادها. وهذا التعريف يخالف ما يراه أبو عمر الشيباني الذي عرف الدعبل بالبعير المسن.. ـ وهذا فيه ما يضعف قول محمد بن أبي أيوب الذي ذهب فيما تقدم إلى أن اسم دعبل ـ محمد ـ.

وتبقى الإشارة إلى أنه لا يختلف اثنان في أن دعبلاً شاعر هجاء. ولهذا فإنه قل أن نقرأ شعراً له خالياً من رائحة الهجاء أو السخرية فهو أما صرح بما هو مقذع لمح عن ذلك. من ذلك قوله:

يلوث لحية عرضت وطالت
ويَمْرُثُها كتمريث الخميره
فيا لك لحية وضْرَى وشيباً
كأنك قد أكلت بها مضيره

ويروى أن عميراً الكاتب كان أقبح الناس وجهاً فلقي دعبلاً يوماً بكرة. فلما رآه تطير من لقائه فقال فيه:

خرجت مبكراً من سُرّ مَنْ را
أبادر حاجة فإذا عمير
فلم أثن العنان وقلت أمضي
فوجهك يا عمير خراً وخير

دعبل معاتب ومشؤوم وخبيث لسان!

ودعبل هو ابن علي بن رزين بن سليمان بن تميم الخزاعي. ويكنى بأبي علي وهو شاعر هجاء.. وحينما أقول إنه معاتب ومشؤوم وخبيث لسان فإن هذا القول قليل من كثير قرأته عنه في بعض المراجع الأدبية كمعاهد التّنصيص. وعيون الأخبار. والأغاني. وتاريخ الخلفاء وغيرها. والذي يتتبع أخباره يجد أنه لم يسلم من هجائه وخبث لسانه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم. ولا أولادهم. ولا ذو نباهة أحسن إليه أم لم يحسن إليه. ولا أفلت منه كبير أحد.

وقيل إنه مع قذاعة لسانه كان يتشطر ويصحب الشطار. فقد خرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعتمة فجلسا على طريق رجل من الصيارفة. كان يروح كل ليلة بكيسه إلى منزله. فلما طلع مقبلاً عليهما وثبا عليه وجرحاه وأخذا ما في كيسه فإذا هي ثلاث رمانات في خرقة ولم يكن كيسه معه ليلته ومات الرجل في مكانه. واستتر دعبل وصاحبه وجدّ أولياء الرجل في طلبهما وجدّ السلطان أيضاً في ذلك. فطال على دعبل الاستتار فاضطر إلى أن يهرب من الكوفة فما دخلها حتى كتب إليه أهله أنه لم يبق من أولياء الرجل أحد.

ودعبل لا يقتصر في هجائه على الأشخاص والشخصيات كما أسلفت بل إنه ليتناول الأمكنة والأزمنة معهم... يقول في هجاء مدينة قم وسكانها:

ظلّت بقُمَّ مطيتي يعتادها
همان: غُربتها وبعد المَدْلَجِ

ما بين علج قد تعرّب فانتمى
أو بين آخر مُعْرِبٍ مستعلج

ودعبل ينزع في بعض الأحيان إلى العتاب. من ذلك ما ينسب إليه قوله:

وقد قطع الواشون ما كان بيننا
ونحن إلى أن يوصل الحبل أحوج

رأوا عورة فاستقبلوها بأليهمْ
فلم ينههم حلم ولم يتحرّجوا

وكانوا أناساً كنتُ آمن غيبهم
فراحوا على ما لا نحبُّ فأدلجوا

أما شؤمه فقد ذكر صاحب كتاب معاهد التنصيص. أن محمد بن عمر الجرجاني قال: ـ دخل دعبل الري في أيام الربيع فجاءهم ثلج لم ير مثله في الشتاء. فجاء شاعر من شعرائهم فقال شعراً. وكتبه في رقعة. وهو:

جاءنا دعبل بثلج من الشـ
ـعر فجاءت سماؤنا بالثلوج

نزل الري بعد ما سكن البر
د وقد أينعت رياض المروج

فكسانا ببرده لا كساه اللـ
ـه ثوباً من كرسف محلوج

وألقى الرقعة في دهليز دعبل. فلما قرأها دعبل ارتحل عن الري.



ليس للمشكلة طبيب إذا كان مصدرها جار قريب!!

قال لي صديقي: لقد تنمَّرَ عليّ جاهل لا يقيد لسانه أدب. ولا يرتفع بجهله حسب. ولا يصطحب الحكمة إلى أرب.

قلت له: دعه وشأنه. قال: ما هو إلا كالكلب إن حملت عليه لهث وإن تركته نبح. قلت له: إن لم يكن جار لك ولا قريب تجمعك به الظروف التي تلم شمل الأقرباء عادة. فليس لتذمرك من تَنَمُّرِه مبرر يبلغ بك الضجر من سوء طبعه. وسيئ خلقه!!. فتأوه وقال: ـ ليت الأمر كذلك.. ففهمتُ أن المتنمر عليه كما يقول. قريب وجار في آن واحد وأنني قد أصبت من وصف حاله معه مقتلاً... ولذا فإنه لا بد لي من الخروج به من تلك الدائرة. فكان أقرب شيء إلى تفكيري هو الرمز له بنصف بيت شعر يقول «بالدار داراً وبالجيران جيرانا». ثم عقبت عليه قائلاً: إن النصف من البيت يفتح لكل متحير طريقاً يبتعد من خلاله عما لا يتفق ومنهجه في الحياة ـ: وهو بعبارة أوضح. خرطوم ماء بارد يقي من لهب الحريق الذي يتسبب في إشعاله. جاهل لا يعرف مدى الخسائر المعنوية قبل المادية التي تلتهمها ألسنة النار التي يطرب لرؤيتها الأطفال البعيدون عن حرارة وهجها ومن في مستواهم العقلي ممن توهم هيئتهم أنهم بلغوا مبلغ الرجولة بينما واقعهم يعكس ذلك الإيهام... ـ قال: بل هي وصفة طبيب ولكنها جاءت بعد استفحال الداء فعقم مفعول الدواء. ـ فعلمت أن الأمر فوق ما كنت أتصوره فقلت له: لك في تجارب الآخرين عبرة. والسعيد من اتعظ بغيره. والمثل الشعبي ـ يقول «اسأل مجرباً ولا تسأل طبيباً» فلزم الصمت وكأنما هو يقول لي ـ هات لي مجرباً!!! ولأنني أعرف أن له ذوقاً

رفيعاً في منهج الشعر طفت بخاطرتي فيما كنت قرأته عن الترفع عن الجهلة ومن لصفات الحيوان في تصرفهم صفات... فقلت له: اسمع هذه الأبيات من قصيدة للشاعر أحمد الصافي النجفي. فلعل فيها ما يريح نفسك إذا علمت أن هناك من يشاركك المشكلة وأنك لست وحدك الذي تُنُمِّر عليه. وإنما هناك أناس يشكون كشكواك. يقول النجفي:

أطيق بأن أرى حتى اللئاما
ولكن لا أطيق أرى الطغاما

فأغضي عنهمو أن يعرضوا لي
وإن يك عُدّ إغضائي انهزاما

فإن عداوتي عِلقٌ ثمين
فما أحبو بها إلّا العظاما

وإن عداوتي كالحب تُنمى
إلى روحي - أأمنحها السواما؟

ترفّعَ عنهمو حبي وبُغضي
فلا مدحاً أسوق لهم. وذا ما

أُجنب ناظري عنهم كأني
أرى الأقذاء فيهم والهواما

وكم لعداوتي من يدّعيها
ليلقى الجاه فيها والمقاما

إذا قالوا عدوّك ذا فلان
فلست مجيبهم إلّا ابتساما



الشكوى من الزمان.. ومن أهله!!

تلجُّ فئة من الناس بأصوات مُرتفعة كلها تذمر وشكوى. . والذي يصغي لفهم هذه الشكوى. يجد أنها ليست على نمط واحد أو شكوى من حالة واحدة قد اتفقت عليها ألسن الشاكين. وإنما يسمع شكوى متعددة ومتلونة تنطلق من حناجر مظلومة قد غُلِبَت على أمرها بسلب حرية القول والفعل منها. أو من أفواه بؤساء أناخ عليهم الزمان بكلكله.

وإذا اتجهنا إلى البحث عن الأمور الرئيسية المسببة للشكوى التي تكتظ منها حناجر الناس وصرفنا النظر إلى بعض الشكاوي التي تنشأ من التصرفات الفردية التي تؤثر نسبياً على الأمزجة وترقى في بعض الأحيان إلى العبث بالعلاقات المعنوية التي تربط بين شخص وآخر. وجدنا أن من تلك الأمور الرئيسية الإحباط الذي يصاحب المرء عندما يفشل في الصعود إلى القمة وهذا هو مانوه عنه أبو الطيب المتنبي الذي كانت طموحاته أقوى وأكبر من قدراته الذاتية التي كلما تجلت وحاولت التحليق بجناح الأمل حال دون دفعها ضعف القدرة. وذلك بقوله:

أرق عــلــى أرق ومـثـلـي يـأرق
وجـوى يـزيـد ودمـعـة تـتـرقـرق

جهد الصبابة أن تكون كما ترى
عـيـن مـسـهـدة وقـلـب يـخـفـق

مـا لاح بـرق أو تـرنـم طـائـر
إلّا انـثـنـيـت ولـي فـؤاد شـيـق

وعلى هذه الحالة فليس للمتنبي بد من الشكوى من الزمان الذي لم يسعفه.

أما الشكوى من أهل الزمان. فهذا أمر يبرز في فاعلية المتسلط وإيغاله في الظلم الذي يتمثل في الاعتداء وسلب الحق والحرية والتجهيل. وكل أساليب الإهانة. وهذه يحصل من المستعمر الذي يستوطن البلاد ويزرع فيها الفساد. وهذا ما أشار إليه الشاعر أحمد شوقي في قصيدته التي قالها في نكبة دمشق والتي استهلها بقوله:

سلام من صبا «بَرَدى» أرق
ودمع لا يُكفكف يا دمشق

ومعذرةُ اليراعة والقوافي
جلال الرزء عن وصف يَدِقِ

وفيها يخاطب دمشق بلهجة المشتكي الذي عانى من ظلم ظالم متجبر. وذلك بقوله:

وبي مما رمتك به الليالي
جراحات لها في القلب عمق

وفي موضع آخر من نفس القصيدة يمضي في مخاطبة دمشق ويصف تعنت المستعمر واستهتاره بالقيم الإنسانية. وذلك بقوله:

سلِي من راع غيدك بعد وهن[(١)]
أبين فؤاده والصخر فرق

وللمستعمرين وإن ألانوا
قلوب كالحجارة لا ترق



(١) الوهن: نصف الليل أو بعده بقليل.

الموضوع المثمن

ومن عجائب الصدف أنني أنشئ هذا الموضوع في اليوم الثامن من الشهر الثامن لعام ١٤١٢هـ وأن يكون رقمه التسلسلي ـ الثامن بعد الألف من بين الموضوعات التي يحتويها هذا الكتاب «الأدب المثمن» وأن يقع في الجزء الثامن منه.. ولهذا كله جعلت عنوانه كما تقدم «الموضوع المثمن» وصرفت النظر عن الخاطرة التي حملتني على إنشائه حيث ورد في الذاكرة من طرائف المصادفة ما يناسب هذه الصدفة والتي منها ـ الخليفة العباسي المثمن ـ وهو المعتصم بن هارون الرشيد ـ وقد سمي أو دعي بالمثمن أو الثمانيني لأنه ولد في ٨/٨ عام ١٨٠هـ ومات في ١٨/٩/١٨٨هـ وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام وهو ثامن الخلفاء من بني العباس وفتح ثمان فتوحات. ووقف ببابه ثمانية ملوك. وقتل ثمانية أعداء وكان عمره ثمانياً وأربعين سنة وخلف ثمانية بنين وثمان بنات. وثمانية آلاف دينار و٨٠٠٠ درهم و٨٠٠٠ فرس و٨٠٠٠ جمل وبغل ودابة و٨٠٠٠ خيمة و٨٠٠٠ عبد و٨٠٠٠ جارية وبنى ثمانية قصور ونقش خاتمه «الحمد لله» وهي ثمانية حروف وكانت غلمانه الأتراك ١٨٠٠٠ غلاماً وطالعه الثمانية في كل شيء.

وفي كتاب «المنبهات من أقوال الرسول ﷺ» والصحابة والتابعين للحافظ ابن حجر العسقلاني ـ أن النبي ﷺ قال: «ثمانية أشياء لا تشبع من ثمانية. العين من النظر والأرض من المطر. والأنثى من الذكر. والعالم من العلم. والسائل من المسألة. والحريص من الجمع. والبحر من الماء. والنار من الحطب». وقال أبو بكر رضي الله عنه: ثمانية أشياء هن زينة لثمانية أشياء: العفاف زينة الفقر. والشكر زينة النعمة.

والصبر زينة البلاء. والحلم زينة العلم. والتذلل زينة المتعلم. وكثرة البكاء زينة الخوف. وترك المنّة زينة الإحسان والخشوع زينة الصلاة.

ويروى لشاعر يقال له ابن مسعود قوله:

وكم ليلة في شهر كانون بتُّها

أعانق من حبي بها الدعص والغصنا

سمعت من الكافات فيها ثمانيا

فما شئت من مرأى أنيق حوى الحسنا

كباباً وكيزانا وكيساً وكاعبا

كساءً وكوبا والكوانين والكنّا

أما صفي الدين الحلي واسمه أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي السنبسي فيقول مستدعياً الأعيان:

تصدّق فإنا ذا النهار بخلوة

إذا زرتها تمّت لديّ المحاسن

أوانٍ وساق غير وان ومطربٌ

وراح لها طيب السرور مقارن

فإن زرتَ مغنانا تكن أنت أولاً

وعبدك ثانيها وشادٍ وشادنُ

وخامسها الراووق وكأس سادس

وسابعها الأبريق والعود ثامن

وقال أحدهم يصف ناقة طيبة النفس عند الحلب:

طوت أربعاً منها على ظهر أربع

فهن بمطويّاتهن ثمان



محترفو الكتابة وامتداح من لا يستحق المدح!!

وقفت على قصيدة للشاعر محمد مهدي الجواهري. عنوانها «النابشون» وقد كُتب لها توطئة مفادها أن الصحف العربية تطالع القارئ على فترات متقاربة جداً بأسماء لا تعرف في الوسط العلمي أو الأدبي أو الثقافي أو السياسي. وقد جعلت منها أعلاماً بارزة. . . ويتساءل الجواهري قائلاً: إن صح وجود هذا الزخم من تلك الشخصيات سواء كانت حية أم ميتة فلماذا لم يكن لها تأثير في مجتمعنا؟ ولماذا نحن على هذا الوضع من المستوى العلمي والثقافي والسياسي. وتلك الأعلام بين ظهرانينا وتساؤل الجواهري هذا فيه اتهام للصحف بأنها تعطي من تريد حجماً غير حجمه وتجعل منه عبقرياً فذاً بينما الجهل منه أقرب إلى المعرفة.

والحقيقة إن هذا النهج التوهيمي ما زال قائماً في عالم صحافتنا. فكم نقرأ من أسماء كالوا لها مديحاً وأوقروها بصفات علمية وأدبية وأخلاق فاضلة حميدة. والأدب والعلم بريء منهم براءة الذئب من دم يوسف. ولكن الأهواء وعدم التجرد أو المأجورية قد حملتهم على تطريز ثياب خلقة لا يزيدها تطريزهم لها إلّا قبحاً. ولا يجلب لها إلّا سخرية واستهزاء.

وأنا أتصور لو أن الألقاب تباع وأن المداحين سيدفعون قيمتها من جيوبهم لما سمعنا لها دوياً في المقالات التي يهدفون منه إبراز من مدوا إليهم جسوراً ملوثة. أو لو أنهم أدركوا معنى الحديث الشريف الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي مَعْمَرٍ قال: قام رجل يثني على أمير من الأمراء. فجعل المقداد يحثي عليه التراب. وقال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المداحين التراب».

وأعود إلى الجواهري. حيث في وصفه لمحترفي الكتابة ما يغني عن الزيادة في التعليق على هذا الموضوع. فهو يقول في قصيدته ـ النابشون ـ:

أبـصـرت «حـفـاراً» بـمـقـبـرة
نـكـراء يـوسـع أهـلـهـا «نـبـشـا»

قـد كـنـت أعـرف أن سـاكـنـهـا
مـمـن أشـاع الـكـيـد والـبـطـشـا

قـد كـنـت أعـرف هـهـنـا جـدثـا
ضـم الـغـبـاء وعـانـق الـفـحـشـا

قـد كـنـت أعـرف هـهـنـا جـيـفـا
تـؤذي الـثـرى. وتـدنـس الـنـعـشـا

فـإذا «مـداد» كـالـصـديـد قـذى
يـكـسـو يـراعـاً يـشـبـه «الـرفـشـا»[1]

فـيـخـط فـوق وجـوهـهـم نـقـشـا
وإذا بـهـا بـنـقـيـضـهـا تُـنْـشـى

وإذا بـطـون الـغـيـب تـسـألـني
مـا لـسـت أمـلـك رده دهـشـا

أفـمـوطـن فـيـه يـعـاسـبـة
كـأولاء كـيـف بـطـاحـه تـغـشـى[2]

والقصيدة طويلة فهي تبلغ ٢٠ بيتاً مشحونة بمثل ما جاء في البيت الأخير من تساؤل غريب.

---

(١) الرفش: المجرفة.

(٢) اليعاسيب: جمع يعسوب، وهو ذكر النحل وقائد أسرابه.

الهوى وأسلوب العشق في الماضي والحاضر!!

ونحن حينما نستنطق تاريخ العشاق وأصحاب الهوى. نجده قد سجل ما يعرف بالحب أو الهوى العذري. وهذا الهوى لا تمازجه أية ريبة أو شك بين من ربطتهم دائرته الذهبية.. فهو هوى لا يترك في صفحة الأخلاق أثراً سيئاً.. ولعل الشيم العربية كان لها في ذلك وقفة تحول بين المرء ونفسه عندما تحدثه بما لا يتفق وأنفته العربية وافتخاره باستقامة خلقه وكمال أدبه.. ولهذا ترددت كلمة العشق في صفحة سيرته دون أي تعليق مخل بالشرف والطبع العربي.

ومع هذه الإشارة إلى حالة العشق والهوى لدى القدامى لا أرى داعياً لإيراد صور عن ذلك فكتب التراث الأدبي مليئة بما يشير إلى العفة التي تتوج أي علاقة حب تنشأ بين متحابين.

لكننا حينما نقف على صفحة التاريخ التي لم يجف حبر الكلمات التي دونها المؤرخ المعاصر أو بالأصح الناقد المعاصر نجد في فصولها المتعلقة بالحب والعشق والهوى نكتاً سوداء وعبارات لا تقارن في معناها ومفهومها بما خلده التاريخ عن العشاق القدامى. وإنما نجد ترجمات لمواقف فردية. وتحقيقات لحوادث مخجلة تهبط بأصحابها إلى المستوى الذي ينكره الطبع العربي الأصيل. وتمقته العفة التي كان الأقدمون يفاخرون بالتزامها. ويرون في التخلي عنها سفالة ورذالة وسقوطا من ذروة الأدب إلى معاطن الحيوان.

وأمر المقارنة بين العشق والهوى في زماننا هذا وبين ما كان عليه في زمن كثير عزة وعروة بن أذينة وقيس بن الملوح وغيرهم يسفر عن

فجوة كبيرة وبعد في المفهوم الأدبي للعشق وهوة سحيقة يسقط في قعرها العشاق في زمننا.

وحول هذا الموضوع قرأت قصيدة نشرتها المجلة العربية للشاعر السعودي محمد سعد المشعان. منها قوله:

أومأت «ليلى» إلى تاريخها
قلتُ: لن أُلفي له قيساً جديداً

وانثنت «عزة» في إغرائها
قلتُ يا «عزُّ» خذي الرأي المفيدا

كان قوم ثم بانوا فإذا
ما أصبتِ «الجدّ» أخطأتِ الحفيدا

وبدت «ليلى» وفي لألائها
عبق التاريخ ينداح وليدا

تلك ـ قال الناس ـ سَمْتٌ باهر
إن حكتْ ألفيتها رأيا سديدا

وإذا ما رمتَ منها ميلة
صرتَ منها مثلما صرتُ بعيدا

قلتُ يا ـ لبنى ـ فألقتْ سمعها
وبدا الورد شفاهاً وخدودا

قلتُ يا «عزّ» ويا «لبنى» ويا
«ظبية التوباد» طبتنّ عهودا



البساطة في الرسالة الشعرية تحقق الغاية!!

وعندما تكون الرسالة الموجهة لقريب أو صديق أو أهل أو حبيب مسكوبة في قالب شعري تكون لها طلاوة وحلاوة.. بل إنه ليزيد من عميق تأثيرها بساطة الألفاظ التي تتكون منها.

والشاعر حينما يفكر في إرسال رسالة شعرية إلى أهله وذويه فإنه يعمد وبطبيعة الحال إلى بساطة التعبير وعدم التقعر في الألفاظ وحشر غريب الكلمات وهذه سياسة تكفل له ضمان فهم رسالته من لدن عموم الأهل صغيرهم وكبيرهم. متعلمهم وأميهم... بل إنه يرى أن في اختيار الأسلوب والوزن والقافية. والكلمات السهلة ما يسهّل على المرسلة إليه حفظها.. يضاف إلى ذلك أن الأسلوب السهل في الرسالة الشعرية يحقق له طرح ما يريد طرحه على المرسل إليه.

أقول هذا بعدما قرأت رسالة شعرية للشاعر السعودي الدكتور عبد الله الحامد كان قد وجهها وهو في الغربة إلى أهله. وقد سأل فيها عن عدة أسئلة منها قوله:ـ

يـــهـــزنـــي قـــلـــبـــي إلـــى
ربـــيـــعـــي الـــخـــصـــيـــب

وبعد هذه الاستهلالة بأبيات أخذ يسأل عن أشياء أهله وذلك بقوله:

فـــكـــيـــف حـــال دارنـــا
والـــقـــاع والـــكـــثـــيـــب؟

والأثـــل كـــيـــف حـــالـــه

والـــلـــغـــف والـــخـــبـــوب

ثم يواصل السؤال عمّا له علاقة بمصدر معيشتهم كالزرع والنخل.

والـــزرع كـــيـــف طـــلـــعـــه

والـــنـــخـــل والـــقـــلـــيـــب

ولا ينسى وسيلة الانتقال ـ السيارة «الددسن».

و«الــدّدْسِــنْ» الــعــظــيــم هــل

شـــراعـــه مـــنـــصـــوب؟

ويسأل عن منجل كان قد دفنه في رمل العرقوب إلى أن يأتي الربيع فيستخرجه ويحصد به الحشائش والأعشاب.

ومـــخـــلـــب دفـــنـــتـــه

فـــي رمـــلـــة «الـــعـــرقـــوب»

إلـــى الـــربـــيـــع والـــحـــشـــيـــ

ش نـــفـــســـه تـــذوب

ويسأل عن شالح راعي أغنام بلده ويضيف في سؤاله عن عنز أهله الحلوب:

وكـــيـــف حـــال «شـــالـــح»

وعـــنـــزنـــا الـــحـــلـــوب

والقصيدة أطول من ذلك وفيها استفسارات أكثر من ذلك وقد قرأتها في المجلة العربية ـ العدد ١٥٧ صفر سنة ١٤١١هـ.



هذا البيت لا يصلح للاستشهاد به!!

يقول الشاعر أحمد شوقي في همزيته التي امتدح سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله ﷺ:

الاشــتــراكــيــون أنــت إمــامــهــم
لــولا دعــاوى الــقــوم والــغــلــواء

داويــت مــتــئــداً وداووا طــفــرة
وأخــف مــن بــعــض الــدواء الــداء

ومفهوم القول في البيت الأول ربما فسره أهل الأهواء بما لم يكن يقصده الشاعر. لأن هناك اشتراكية. واشتراكيون يدعون لها ويرفعون أعلامها. وهي كما نعرفها. مذهب شيوعي بعيد عن الإسلام بل هو من ألد أعداء الإسلام وأقبح خصومه.

وخوفاً من أن يفسر البيت بأن الاشتراكية الشيوعية قائمة على مبدأ من التشريع الإسلامي والسنة المحمدية... أو أن يلج في فهمه الجهلة الذين لا يميزون بين الاشتراكية من حيث المفهوم اللغوي لها وواقعها كمذهب فاسد أقل ما في فساده عدم حماية ملكية الفرد أو تحريم ماله على نفسه فضلاً عن كبت حريته وعدم التصرف في نفسه... فإن تجنب الاستشهاد به في عصرنا هذا الذي تموج فيه الفلسفات والتحليلات الخاضعة للشهوات العقيدية التي تناهض الإسلام يعد أمراً مستحسناً أقول وجهة النظر هذه بعد ما قرأت البيت المذكور ضمن موضوع نشرته جريدة الرياض في عددها ٨٦٧٦ الخميس ٢٣ رمضان سنة ١٤١٢هـ تحت عنوان «الزكاة والصدقة» للأستاذ الأديب الدكتور محمد بن سعد بن

حسين. ورغم أنه قد نبّه إلى سوء تفسيره واستدرك ذلك بقوله: ـ وقد جهل قوم فقالوا إن شوقياً قد أخطأ في هذا القول حيث جعل النبي ﷺ إماماً للاشتراكيين. وهذا فهم سيء خاطئ ينفيه الشطر الثاني من البيت الأول. وكذلك البيت الثاني جميعه. وإلّا فما هو عمل ـ لولا ـ وأنا أقول ـ البعد عن الشر أولى ـ ونحن في غنىً عن الاستشهاد بأي قول تدور حوله شبهة تحمل المغرضين على تفسيره بما لم يعنه قائله. حتى لا ندخل في جدل طويل نكون نحن الذين هيأنا الظرف لوجوده.

أخيراً يحسن بي أن أختم هذا التعليق البسيط بأبيات من تلك الهمزية لتكون مسك الختام... وكيف لا تكون مسكاً ختامياً وهي مديحة رائعة في أفضل من صلى وصام... يقول شوقي في تلك القصيدة التي تبلغ ١٣٠ بيتاً تقريباً:

لي في مديحك يا رسولُ عرائس
تُيِّمن فيك وشاقهن جلاء

هن الحسان فإن قبلت تكرما
فمهورُهُن شفاعة حسناء

أنت الذي نظم البرية دينُه
ماذا يقول وينظم الشعراء

المصلحون أصابع جُمِعَتْ يداً
هي أنت ـ بل أنت اليد البيضاء

ومنها قوله:

ظلموا شريعتك التي نلنا بها
ما لم ينل في روقة الفقهاء

مشت الحضارة في سناها واهتدى
في الدين والدنيا بها السعداء

إذا نصّف المحب عمره فماذا يبقى له؟!!

ويرقى أسلوب المبالغة في التعبير عما يخالج نفس المحب إلى درجة تصل تقسيم العمر إلى قسمين كل منهما يؤدي واجباً للمحبوب.

وفلسفة التقسيم هذه ربما أنها قائمة على معادلة فرضها بعض شعراء الغزل لإرضاء من أصفوا له محبتهم واعتبروه حلالاً يقبل التعديل والتبديل. حيث لم يبق من القسمة باق يحمل على إعادة النظر في عملية القسمة.

ولا أرى التمادي في البحث عن آراء الشعراء في تمليك أعمارهم لمن يشببون به مجدياً لأن هذه عاطفة لا يمكن كبحها.. وحس داخلي لا يمكن معارضته... فلا النقد ولا الانتقاد يصرفهم عن البوح بذلك... وأما التطبيق فهذا ما يحتاج إلى تحقيق وتوثيق. وأنّى لنا ذلك؟!

ولكن لنأخذ في هذا الموضوع بجانب التصريح ونعرض صورة رسمها الشاعر يس الفيل في قصيدة تبلغ نحواً من عشرين بيتاً أستهلها بالتنصيف الذي سبقت الإشارة إليه. وذلك بقوله:

أُدِنْتُ لها بنصف العمر وصلا

ونصف العمر شوقاً وانتظارا

فهل بادلته نصفاً بنصف. وبالطريقة التي ذكرها؟ ذلك ما لم يجزم به يس الفيل إذ لم يتأكد له ذلك بعد.

وأحسب أنها مثلي أُدينت

وإن يك ما بها أدنى أوارا

ولو أنها أرادت المجازاة لأمكنها ذلك وأخذت قلبه بعمرها وفعلت ما يحقق المقايضة.

وإلّا... لافتدت بالعمر قلبا
تنزّى حسرة وبكى مرارا

وإلّا.. لاستمات بها حنين
إلى زمن كبا. وبنا استجارا

وإلّا ـ لارتمت حيرى بدرب
عليه الحب ـ مما ذاق ـ حارا

والفيل. لا يطمع من إدانتها له بأكثر من فتح باب الحوار معها.

أُدِنتْ لي.. وقلت لها: ديوني
وفاءٌ أستعيد به الحوارا

وقد اعتبر الحوار من أساسيات حياته ومحور تصرفاته.

لأنكِ في دمي قطرات حب
تشكل فيّ.. وامتلك المدارا

ثم يتساءل عن عدم فتح الحوار ويعد السكوت عليه فراغاً يضيع فيه العمر.

إلام ـ ونحن نسبح في فراغ
نذيب العمر نأيا وازورارا



الغني الجاهل

وعبارة «الغني الجاهل» هي عنوان قصيدة للشاعر محمود محمد الجيشي وقد ضمنها ديوانه «أسرار الحياة». الذي تمت طباعته سنة ١٣٥٦هـ وسعره آنذاك «٥٠» مليماً مصرياً وعدد أوراقه ٧٦ ورقة من الحجم الصغير.

وأعود إلى القصيدة ذات العنوان المشار إليه: لنرى رأيه في الغني الجاهل وبماذا وصفه. ففي مطلع القصيدة التي تبلغ خمسة عشر بيتاً يقول:

جمع النقود وكدس الأموالا
متحيراً مترددا جوّالا

وما هذا الغني الذي جمع النقود وكدس الأموال إلّا شخص متحجر ليس بكفء للمال لأنه لا يحسن التصرف به.

شخص تحجر في الحجى يا ليته
كان الحمار فيحمل الأثقالا

ولقد شبهه بالصخرة التي تستتر بحطام الدنيا الذي من أجله أجلّه الناس وأعلوا مقامه.

صخر تستر بالحطام فإن مشى
وقف الورى لحطامه إجلالا

وهذا البيت يذكرني ببيت من الشعر دارج على ألسنة العامة إذ هو في لغته للعامية أقرب منه للفصحى:

المال لو هو عند عنز شبورت

وقيل يا أم قرين وين المنزل

ويمضي الجيشي في وصف ذلك الغني الجاهل قائلاً:

وتراه مبتسماً فتحسبه بكى

وتخاله سهم الردى إن قالا

ولكن هل ارتفع مقام هذا الغني الجاهل في مجالس الأدب والأدباء وحظي بمنزلة مرموقة تنفي عنه الجهل وتبعده عن الجهال؟

فهو الفقير وماله رهن البلى

يا للجهول تعهد الجهالا

والدليل على أن ذلك الغني الجاهل يسير في المؤخرة أنه لم يعرف كيف يوظف ماله توظيفاً يسعد به وينفقه في تعليم أبنائه ليجعل منهم رجالاً علماء لكنه عدم العلم ولم يدرك نفعه.

لو كان ذا علم لأسعد نفسه

ولأسعد الأموال والأنجالا

ولجهله بالعلم لم يفعل بماله شيئاً من الصالحات يخلد به ذكره.

لو كان ذا علم لخلد ذكره

بالصالحات وأصلح الأعمالا

لكنه الجهل الفظيع وإنه

بئست بطانته وساء مآلا



القرآن حكمة من حكيم

وإذا كان الحكيم من الناس هو الذي تتميز أقواله بالحكمة.. فإن هذا لا يعدو عن كونه اقتباساً ضئيلاً من حكمة الله الذي سمى نفسه تقدست أسماؤه ـ حكيماً في أكثر من تسعين موضعاً من القرآن الكريم. منها قوله تعالى في سورة النمل آية ٩: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾.

والقرآن الكريم سمي حكمة. فهو إذاً حكمة من حكيم. وهو قول محكم. ومن الآيات الدالة على أنه حكمة من حكيم قوله تعالى في سورة هود آية ١: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ وقوله تعالى في سورة فصلت آية ٤١: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ وقوله تعالى في سورة النمل آية ٦: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

أما عن تسمية القرآن بالحكمة. فإن هناك شواهد كثيرة من القرآن على ذلك. منها قوله تعالى في سورة آل عمران آية ٥٨: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٥٨﴾ وقوله تعالى في سورة لقمان آية ١، ٢: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾. وقوله تعالى في أول سورة ياسين: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾.

والإنسان العربي المسلم لا يفاخره أحد وذلك لكونه جاء القرآن العظيم بلسانه المبين فاهتدى بهديه..

يقول الشاعر وليد الأعظمي مظهراً التزام العربي المسلم بالقرآن الكريم من حيث الاحتكام بأحكامه في قصيدة استهلها بقوله:

شهد العدو بعزتي وتمنعي
لا أرهب الدنيا وقرآني معي

هذي مشاعر كل قلب مؤمن
وخواطر تنداح بين الأضلع

ويشير إلى ليلة القدر التي تميزت عن سائر ليالي شهر رمضان فصارت خيراً من ألف شهر وذلك بسبب نزول القرآن فيها.. روى النسائي والبيهقي وغيرهما أن ابن عباس قال: ـ أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة.. يقول الأعظمي من قصيدته تلك:

يا ليلة القرآن ردينا إلى
هدي الرسول ووحدينا واجمعي

وخذي بأيدي الصاعدين بهمة
قعساء لم تجبن ولم تتزعزع

هزي الشباب وجددي إيمانه
بالنصر رغم الباطل المتجمع

ومنها قوله:

ما أنزل القرآن إلّا منهجاً
للناس يهدف للنعيم الممرع

تُستنبط الأحكام من آياته
ويكون للتشريع أفضل مرجع

عز الجدود به فكانت نهضة
جبارة قامت على أسمى وعي

والقصيدة طويلة إذ تبلغ ٤٩ بيتاً وهي موجودة في ديوانه ـ الزوابع ـ.

صفحة الإهـداء!!

والإهداء في مفهوم المؤلفين المعاصرين لا يعدو عن كونه كلاماً منسقاً خصّ به الصفحة الأولى من المؤلف ـ بفتح اللام ـ. ولهذا فإنه قل أن نقرأ كتاباً أو ديوان شعر حديث التأليف والطباعة إلّا ونجد قد سطر على إحدى ورقاته الواقعة في صدره عبارات وكلمات مشحونة بالاعتراف بجميل أسدي إلى المؤلف من شخص ما. وإن المؤلف لا يجد ما يرد به لقاء ذلك الجميل إلّا نتاجه الفكري الذي أودعه كتابه أو ديوان شعره... ويزيد في تحبير ألفاظ الشكر والتقدير. تلك الألفاظ التي ربما جاء بها بعضهم في أسلوب سجعي ليزيد من طلاوة التعبير ليدخل إلى قلب المهدى إليه المكافأة له لا تفضلاً عليه.

وعلى الرغم مما يناله أسلوب الإهداء من عناية فائقة من قبل المؤلف فإنه قلما يلتفت إليه القارئ. أو يعيره أدنى اهتمام ينزع به إلى قراءته.. أقول هذا بعدما سألت أكثر من قارئ فلا يذكر لي إنه قرأ الصفحة: التي خصصت للإهداء.

ولقد وقع في يدي ديوان شعر لمصطفى متولي عنوانه «مورد الصفاء ومنهل الشفاء» فألقيت نظرة على الصفحات الأولى والتي عادة ما تكون للإهداء كما أسلفت. فوجدت على الصفحة: ـ ٦ ـ ما يشبه الإهداء لو أنه جعل عنوانه «إهداء» وهو عبارة عن أبيات من الشعر عنوانها «الدواء» وهو يشير بذلك إلى أن ديوانه مهدى إلى فئات كثيرة من الناس.

أذكر منها قوله:

إلى كل من هو على فساد أخلاق الناس ثائر

إلى كل من يريد التحرر من سلطان المادة وحطام الدنيا الجائر

إلى كل من هو من الحقد والشر والسوء نافر

إلى كل من يتربص به الأشرار من الناس الدوائر

إلى كل من هو أمام ذلك الكون حائر

إلى كل من يتطلع إلى رحمة الله الكريم الغافر

إلى كل من هام بحب ربه وصفت منه السرائر

إلى كل من تهيم نفسه بالعفاف والجمال الطاهر



مقابلة التودد بالإساءة والتصدد!!

ونحن إذا ما استطلعنا جانباً من أساليب المحاولة التي يقصد بها بعضهم إقامة صلة بينه وبين فئة من الناس. نرى أن العامل الذي يحرك محور الرغبة في تلك الصلة المزمع إقامتها هو محض الود وإظهار الإخلاص وتقريب المسافة بين التجانس في الرأي. وتحاذي المفاهيم. لكن هناك من يندفع بسرعة نحو إقامة تلك الصلة وربطها بفئة لا يعرف طويتها ولا ما جبلت عليه أخلاقها فيصطدم وده وإخلاصه بسلبيات من لدن من كان يحاول مصادقته فيحصل لعمله الإيجابي هذا إحباط وانتكاس. بل ربما قوبلت إيجابياته بعامل مسيء تتمحور عليه سلبيات بعيدة في واقعها عن الأخلاقيات الفاضلة.

- وحول مفهوم مقابلة إيجابية المصادقة بسلبية من المرغوب في صداقته قرأت شعراً للشاعر مصطفى متولي يصف فيه ذلك الواقع.. ففي قصيدته «وادي السعير» التي استهلها بقوله:

قضيت الليل أنظر ما شجاني
وأبحث في تصاريف القضاء

وأعجب كيف أبذل محض ودي
لأقوام تغالوا في عدائي

وبعد أن تحقق له أنهم يبطنون له خلاف ما يظهرون. وصفهم بالثعالب المراوغة. والأفاعي السامة.

فهذا الثعلب الواشي يداجي
وذاك الماكر الأفعى يرائي

ثم يظهر أسفه على ما قدمه من فعل جميل لمن لا يقدر الجميل ولا يعرفه.

وكم قدّمت من خير عميم
لخلّ راح يسعى في فنائي

يحدثني حديث الأصفياء
ويمطرني بأسباب الشقاء

فما لي إن منحتك يا صديقي
رضاي منحتني سوء الجزاء

وإن ضحيت أيامي فداء
لأسترضيك لم تَقْدر وفائي

ثم يعطف القول على نفسه في أسلوب مناجاة تبعث على تهوين الأمر عليها. وتوطينها بأنه يقابل السلبيات بالمسامحة عن عمد لا عن غباء أو عجز. لأنه لو أراد الانتصاف لبادل الجفاء بجفاء. وذلك بقوله:

ولو أني انتصفت لكان ردي
على طاغي جفائك بالجفاء



التقوى في تطبيق ما كُتب

والذي يبحث في الآيات القرآنية الكريمة المتعلقة بالأمر بتنفيذ ما شُرع للناس يجد أن بعضاً منها جاء متضمناً عبارة ـ كُتب ـ أو كتب عليكم ـ والملاحظ أن بعضاً من تلك الآيات جاء مخاطباً المتقين. أو مرتبطاً بذكر التقوى. ويذهب بعض المفسرين كالطبري إلى أن معنى كتب ـ أي فرض عليكم. وكلفتم بتنفيذ ما ورد بعدها من سياق.. وأذكر هنا بعضاً من الآيات التي جاءت بهذا المعنى التفسيري والتي ارتبطت التقوى بتطبيقها قال تعالى في سورة البقرة آية ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٧٩ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ۝١٨٠﴾.

وقال تعالى في سورة النساء آية ٧٧: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾.

ولا أريد هنا محاولة حصر الآيات التي ارتبط فيها ذكر التقوى بتنفيذ ما قد شرع أو فرض تطبيقه. وإنما أردت بذلك الإشارة إلى أن القرآن فيه من الأسرار ما ينشرح له الصدر وتطيب به النفس عند معرفة مقاصده ومفاهيم أحكامه وتشريعاته.

يقول الشاعر حافظ بن أحمد الحكمي المولود بقرية المضايا بجازان سنة ١٣٤٦ والمتوفى بمكة المكرمة سنة ١٣٧٧هـ ذاكراً بعض صفات القرآن وأسمائه في قصيدة له. منها قوله:

هو الصراط هو الحبل المتين هو
الميزان والعروة الوثقى لمعتصم

هو البيان هو الذكر الحكيم هو
التفصيل فاقنع به في كل مُنْبهم

هو البصائر والذكرى لمدكر
هو المواعظ والبشرى لغير عمي

هو المنزّل نوراً بيناً وهدى
وهو الشفاء لما في القلب من سقم

لكنه لأولي الإيمان إذ عملوا
بما أتى فيه من علم ومن حكم

أما على من تولى عنه فهو عمي
لكونه عن هداه المستنير عمي

فمن يقمه يكن يوم المعاد له
خير الإمام إلى الفردوس والنعم

كما يسوق أولي الأعراض عنه إلى
دار المقامع والأنكال والألم



حب الأوطان ليس مقصوراً على الإنسان!!

وإذا عشق الضب جحره. وبالغ في حبه. فإنه يعشقه لأنه بذل جهداً كبيراً في اختيار موقعه وفي حفره. ولذلك فهو يتفانى في الاحتفاظ به. بل يدافع عنه دفاع المستميت.. ومن صور دفاع الضب عن جحره. إنه يقاتل الثعابين التي تحاول الاستيلاء عليه. ويطردها منه دون خوف أو رعب من سمها القاتل. ولا يقول كما يقول لها بعض الحيوانات: «تمدد بها يا أبا طويل».

- أما الإنسان فهو يقف دون وطنه وقفة لا يماثلها وقفة. حيث يرخص دمه وماله في سبيل سلامته.

وإذا ابتعدنا قليلاً عن الدفاع عن الوطن. حيث لا يختلف اثنان في حتمية الدفاع عنه وصدق العزيمة على ردع أي معتدٍ عليه. ونظرنا إلى مكانة - وأعنى بذلك الوطن - في قلب المواطن الصادق في حبه لوطنه. وجدنا أنه يتربع في قلبه. وأنه خلاصة الحب الممتزج بالدم. كيف لا. ونحن نقرأ الكثير من الرسائل الوطنية التي تحتفظ بها صفحات التاريخ كوثيقة يستشهد بها على أن البعد عن الوطن يزيد في حبه. ويبعث الحنين إليه.

ولعل السر في ذلك يرجع إلى عمق الإيمان أولاً ثم إلى هواء استقر في الرئة عند لحظة الولادة واستودع القلب منه شيئاً امتزج بالدم امتزاجاً فرض حبه على النفس مدى الحياة.

أما الوطن نفسه فهو عندما يطالب لسان حاله بحقه.. يعرض صورة ذهنية تشتمل على ما طبعته الخطوات الأولى التي بدأ بها

المواطن أثناء محاولته المشي من أثر فوق أديمه. وكأنما هو ـ وأعني بذلك الوطن ـ يقول: هذه صفحة مختومة بأثر أقدامك التي خطوت بها أول مرة على ترابي.. فهل تنساها؟ فيجيبه المواطن.. كلا وألف كلا.

وإذا كان لوطن ما ميزة عقيدية أو حضارية على سائر الأوطان فإن هناك مجالاً للافتخار والانتماء إليه. والمملكة العربية السعودية فيها ما يجعل سلطان المفاخرة فوق كل اعتبار فهي مهبط الوحي وفيها بيت الله الحرام ومسجد وقبر رسول الله ﷺ.. ولهذا فإنه لا غرو أن يتعشق رؤيته سائر المسلمين وأن يحن إليه المواطن عندما يغترب عنه. ـ ومن صور الحنين إليه هذه الأبيات التي قالها الشاعر عبد الله محمد جدع عندما كان مغترباً عن وطنه المملكة العربية السعودية.. من تلك الأبيات قوله:ـ

قسماً بمن عنت الجباه لوجهه
وبمن إليه القصد في الغايات

إني سأذكر ما حييت منازلاً
فيها ابتدأت أوائل الخطوات

وعلى ثراها عاش مبعوث الهدى
للعالمين بمحكم الآيات

يا موطني يا رمز عز في الدنى
لا أرض غيرك أرتضي لرفاتي

فإذا قضيت ففي رضاك شهادتي
وإذا حييت فأنت رمز حياتي

بعد الإله ودين رب محمد
أنت المنار وأفتديك بذاتي

بــلــدي أتــوق إلــى أذان مــنــائــر

لــلــحــق تــدعــونــا ولــلــصــلــوات

والــيــوم كــم ضــاق الــفــؤاد بــغــربــة

فــيــهــا شــقــيــت وأذرفــت عــبــراتــي



هجوم على التراث واللغة... ودفاع دونها يتعملق!!!

وعندما تحل مصيبة بدار قوم من الأقوام أو شعب من الشعوب. فإن الذي تربطه علاقة بما استهدفته لا بدّ أن تغمره كآبة. ويعمه حزن من جراء وقوعها. لأنه سمع ورأى وعايش سوء وقعها.. ـ كما أن الإخباريين والمؤرخين يقصدونه ليرووا عنه كشاهد عيان لا ترقى لروايته تهمة أو شك.

ـ والجار الذي يشهد جريمة تقع في دار جاره. هو أعدل الشهود. وأصدق مُسْتَخْبَرٍ عن صفتها وكيفية وقوعها.. ثم هو بالتالي ملزم بالدفاع عن جاره ودفع السوء والأذى عنه.

ـ وقصدي من هذه الاستهلالة التي ربما كان فيها شي من عدم رقة الأسلوب. هو الوصول إلى تحقيق حتمية المشاركة في دفع الضرر ورفع الظلم ومواساة المنكوب.

وإذا ابتعدنا قليلاً في تصوير الحالات التي يستدعي وجودها أو هجومها بالأصح الوقوف في وجهها لدرء استفحالها. ورد خطرها.. ثم نزلنا. أو تحولنا عن عالم الإنسان إلى أرضية العلم والمعرفة والثقافة والأدب. وما تقاسيه من هجمات شرسة تستهدف العبث بأصالة الأدب وحيوية التراث. فإن واجب الدفاع عنها يقع أول ما يقع على كل من له ارتباط بها ـ تماماً مثل ما تقع مسؤولية دفاع الجار عن جاره أو صاحب الحق عن حقه.

فالبنيويون والحداثيون الذين يدعون إلى قطع صلتنا بالتراث. يجب التصدي لهم والوقوف في وجوههم من قبل أصحاب الأقلام العريقة

الذين يرون أن في قطع صلتنا بتراثنا العربي ما يستهدف ديننا ولغتنا.

ـ والذين يتبجحون بالشعر الحر ويقيمون حرباً على نظام القصيدة العمودية المقفاة التي وقفوا أمامها عاجزين عن بناء مثلها وقفة الثعلب الذي وصف العنب بالحموضة عندما أعياه الوصول إليه. هم أولئك الذين يجب الوقوف أمامهم ورد شعرهم إليهم مع شيء من التوبيخ على العبث بالتراث واللغة... ولهذا نبارك لكل شاعر يتصدى لهم كالشاعر القدير يحيى توفيق الذي أنشأ قصيدة قوامها ١٩ بيتاً منها قوله:

يا ضيعة الشعر والأقزام تنهشه
نهش الكلاب... إذا استشرى بها الكلب

تكاد من صَرْعة التغريب أنّتُهُ
تمزق الطرس والأقلام تنتحب

في كل يوم نرى شعراً تقيأه
قَزْم.. له جوقة الجهّال تصطخب

أكل من رص فوق الطرس في بله
حرفاً على الحرف... قالوا شعره عجب

فلا المعاني لها في نظمهم أثر
ولا البلاغة أورت بعض ما كتبوا

خوفي على الشعر يذوي في بيادره
والفن يبلى... ونبض الروح يغترب

أليس في دوحة الأفذاذ.. ملتجأ
لصرخة الشعر... إن لم يُسْعَف الأدب

قلبي على لغة القرآن. يا أمماً
أزرى بها الجهل والتصحيف والصخب

للصمت مقال في العشق.. وللكلام مقام!!

وبالتزام الصمت تتعذر معرفة عقلية الصامت.. لأن عقل المرء يدل عليه لسانه ومنطقه. أو كما قالوا: عقل المرء خلف لسانه..

وإذا علم أن الصمت يحول في كثير من المواقف دون صاحبه. بل يقيه من أن يكون شريحة تتبادلها ألسنة النقاد بأساليب مختلفة الاتجاه. فإن عقلاء الناس يحرصون على التزام السكوت وانتهاج الصمت حتى لا يكونوا عرضة لناقد أو منتقد أو ثالب وقادح بسبب فلتة لسان لم يحسب لها حساباً.

وقد يعترض سؤال حول التمييز بين الشخص المطبوع على الصمت والشخص المتصامت. فتأتي الإجابة بأن الصمت بطبيعته. ترافقه السلامة في أي طريق يتجه نحوه... ـ أما المتصامت فإنه يسلم مرة ويكون حصاداً للسانه مرة أخرى.. وإن صحت هذه المقارنة بين الصامت والمتصامت. فإن الثالث يعرف بالمهذار الذي لا يملك في صدره مستودعاً لأي كلمة يجب السكوت عليها وعدم نشرها. وهذا الصنف خطؤه أقرب إليه من صوابه... وذمه أقرب إليه من مدحه.

وقد يعترض سؤال يقول: هل الصمت حسن في كل مجال وفي كل موقف؟ أم الكلام والإسهاب أحسن منه في بعض المواقف؟ والإجابة على ذلك تتمثل في قولهم: ـ لكل وقت لبوسه. وقولهم: ـ لكل مقام مقال.

وقد يعترض سؤال عن مدى فعالية كل من الصمت والكلام في ميدان العشق ومسالك الوجدان.. وأيهما يحقق الغرض ويكسر حاجز

الهجران. ويخدم الشوق والوله؟. والإجابة لا تخلو من رأي يقول: ـ إن اللعب على الحبلين في هذا المجال جائز ومستحسن لدى بعض فئات العشاق.. فإن كان الطرف الثاني يقرأ معنى الصمت وتجدي فيه الرموز التي يحملها الصمت في طياته.. جاز ذلك كأسلوب تعاملي يحقق أهداف الأشواق المتأججة في داخل النفس.

أما إذا كان الطرف الثاني لا يقرأ في الصمت ما يوحى له بصادق المحبة فإن البوح بما يغمر النفس من حب وشوق هو الوسيلة التي تضمن إبلاغ المحبوب بوله محبه وتعلقه به.

والإفصاح عن الحب بالكلام هو أكثر ما يطرقه شعراءالغزل... أما الإشارة إلى أن في الصمت ما يخبر عن الوله والشوق فهي قليلة فيما يلهج به الشعراء من تغزل... وحول الصمت المريب والبوح المكشوف يقول الشاعر عمر محمد كردي من قصيدة له منها قوله:

لا تعجبي للصمت يملكني
وتساءلي إن حل بي الملل

فلأنت من دنياي أعذبها
بل أنت فيها الشعر والغزل

لا تسرفي في اللوم. فاتنتي
فأظل للأعذار أنتحل

صمت الرجال دليل فطنتهم
ويزيدهم حسناً إذا عقلوا

وقوله:

قالت عرفت الحب يكشفه
بوح الأحبة إن همو عذلوا

لا صمتهم حتى وإن قصدوا
بالصمت ما يسمو به الرجل

شتان بين الحب في وله
يشكو وبين الصب يعتزل

وأراك في حال يحيرني
سيان فيه الريث والعجل



من أين تخرم الصداقة؟!!

ومن الناس من يرتضع فعل الإساءة منذ صغره. ويطبع على ممارستها فلا يرى فعلها إلّا شيئاً عادياً.. وهذا النوع من الناس. إذا عرف أخذ منه الحيطة وعُمِلَ على درء ما يحمله على الإساءة كالابتعاد عنه وتحاشي الدخول معه في نقاش لا يرتبط بأمور أساسية لا يحسن السكوت عليها.

ومن الناس من يكون للحسد بذرة في قلبه فتثمر بالإساءة إلى من حوله. وهذا النوع قد يجدي فيه التعاطف الذي يقتل نمو تلك البذرة فلا تثمر بما يؤذي أو يغضب.

ومن الناس من يتعشق الحسد تعشقاً يفرق به بن متآخيين أو متصادقين أو أي ائتلاف بين اثنين أو أكثر إذا لم يكن هو طرف منهم. فتجده بحكم درايته للموطن الهش الذي يغرس فيه حسده يجري دراسة على المؤتلفين فيعمد إلى من يراه أقرب إصغاء له حينما يتحدث. فيأخذ بكل سبب يؤثر عليه ويحوله. بل يصرفه عن الشخص الذي آخاه أو صافاه أو صادقه وذلك كأن يصوره له عدواً جاء في ثياب صديق من أجل المنفعة. ثم يمضي في مثل هذا الأسلوب الذي هو أشبه ما يكون بالعسل الممزوج بالسم الذي لا يشم له راحة ولا يُتذوّق له طعم. حتى يستجيب له ويعلن عداوته لصديقه.. وهذا الشخص الذي يجيد مثل هذا الأسلوب المفرق يعد من أخطر ما يهدد بناء المجتمع.

وفي مثل هذا الحاسد الذي مضى به حسده في طريق النفاق.. وفي مثل ذلك الصديق الذي يتأثر بكل كلام يقال له. ويصدق بكل ما

يسمع. يقول الشاعر محمد متولي. صاحب ديوان «مورد الصفاء ومنهل الشفاء» من قصيدة له عنوانها «وادي النفاق»:

وكنا طائرين على صفاء
نحلق في الحقيقة والخيال

ونجني من مودتنا نعيماً
كفردوس يجل عن المثال

وشاء الناس صرفك عن إخائي
ومن عجب أصخت إلى المقال

رأوا فيك الطفولة فاستغلوا
صغير العقل موفور الدلال

يصدق كل خدّاع مراء
ويؤمن بالخديعة والمحال

فواعجباً ترى الواشي حبيباً
وما عرف الحرام من الحلال

أتعلم أنه الشيطان يسعى
ليوقظ بيننا نار القتال؟

أتعلم أنه خب لئيم
له في الحشر عاقبة النكال؟



تبعثر القيم الموروثة واضمحلالها!!

لا أدري إلى أي نقطة وصل بنا عامل بعثرة القيم وإذابتها في خضم الحضارة المعاصرة؟!!

ولا أدري إلى أي مستوى بلغ معول الهدم الممعن في تحطيم جدار الخلق الذي أخذت تهوي لبناته. لبنة لبنة؟!!

ولا أدري إلى أي خطوة بلغت بنا المسيرة نحو التخلي عن العادات والتقاليد الحميدة؟!!

ـ إن تقويم حياتنا الأدبية والأخلاقية. والبحث في مدى تمسكنا بتقاليدنا وتعاليمنا وعاداتنا. وما لنا من ماضٍ قد زخر بمأثورات يحسن بنا أن نعض عليها بالنواجذ. ربما يكتنفه شيء من الصعوبة في جدولة نسبة الهبوط والتخلي عن كثير من موروثاتنا الأدبية والأخلاقية. لا لأننا لا نعرف ذاتياتنا وسلوكياتنا. وإنما الصعوبة تأتي من تقاطع الاتجاه الذي أوجدته ظروف العصر الذي بلينا فيه بحب التقليد المخالف لآدابنا الاجتماعية المتوارثة. وجعل المادة فوق كل اعتبار.

وإذا كان أهل الزمان الماضي. والذين من قبلهم يظهرون تذمراً من استحداث عادات وتقاليد لا تجانس عادات وتقاليد من سبقهم فذلك ما يجعلنا نحن أبناء هذا الزمان نقف متسائلين عن الدرجة التي بلغناها من سلم النزول الذي جعلنا بوضعه الطبيعي ندير ظهورنا عن ماضينا المجيد بكل ما فيه من واقع يرفض النفاق الذي يفرق الشمل ويقطع دابر المحبة.

ومن الشعراء الذين حققوا بأقوالهم وجود عوامل مهمتها طمس

القيم التي توارثناها ـ الشاعر التونسي الحبيب سعد مدنين الذي صنع قصيدة[1] ضمنها بعض التحولات عما كان حسناً من عادة وتقليد إلى سيء. . . منها قوله:

كثر النفاق فزادت الأتعاب
وتفرقت من شملها الأحباب

والزور أضحى لابن آدم نكهة
والصدق سُدت حوله الأبواب

لا تعجبوا مني إذا عاتبتكم
إن الحياة صراحة وعتاب

ودماثة الأخلاق تعطي أكلها
منذ القديم يؤمها الطلاب

أضحى الفقير لا يقر بفقره
وغدا الصديق صديقه يغتاب

والجار ما فتئ يناوئ جاره
وتغيرت في طبعها الأصحاب

وروابط القربى اضمحلت أو تكاد
وتشعبت في أمرها الأسباب

والحب ما عاد يزور ضفافنا
إذ لوّثته ثعالب وذئاب



---

(١) القصيدة نشرتها مجلة المنهل العدد ٤٩٤ شعبان ١٤١٢هـ.

على من تقع مسؤولية تجذير الشعر الحر وتعميقه؟!

وعندما يطرح هذا السؤال: ـ على من تقع مسؤولية تجذير الشعر الحر وتعميقه؟ على صدر ملحق أدبي من ملاحق الصحف العربية. فإن الإجابة عليه تعني أول ما تعني محرري تلك الملاحق. وخاصة منهم الذين قد انجرفوا مع دعاة التجديد الذين خرجوا على الشعر العمودي المقفى خروجاً معاكساً لأصالته. وأصبحوا من ألد خصوم تراثنا الأدبي ولغتنا الفصحى. بدليل أن بعضهم أخذ يذبّج للشعر الحر أو قل لشعر الشعارير مقدّمات تنم عن ضعف في مستوى الفهم لعمق التراث الأدبي والمقومات البديعية والبلاغية واللغوية والموسيقية للشعر العمودي المقفى.

وأمام هذه الزوبعة المتمثلة في حركة الشعر الحداثي الحر الذي يحاول بيده المشلولة طمس الشعر العمودي الأصيل عن طريق بعض النقاد الذين حُرموا تذوق الموسيقى الشعرية والإيقاعات التعبيرية الموزونة.. يقف الشعر العمودي باحثاً عمن يقف إلى جانبه ويعزز مكانته التي كان عليها منذ مئات السنين ويذكر بأصالته. ويحذر من الشعر الحر وعبثه باللغة والتراث عن مسلكه الرمزي وتعمياته التي ربما جاءت بما ينافي العقيدة ويحارب الإسلام.

ومن حسن الحظ أن وقفة الشعر العمودي الأصيل المقفى في عصرنا هذا لم تبوء بالفشل بل إنها وجدت من الشعراء الغيورين على الدين واللغة والتراث سنداً وموقفاً حازماً تصدى للشعر الحداثي الحر الذي يخشى أن يمزق تراثنا الأدبي ويطعن لغتنا في ظهرها.. وكيف

يبوء بالفشل ونحن نقرأ بين الحين والآخر ما يخرس ألسنة مروجي الشعر الحر من الحداثيين الذين ينزعون إلى البنيوية في استجابة أمعية ويناصرون ذلك الشعر الذي إن كتب له البقاء فسيكون بثرة قبيحة في وجه أدبنا العربي الأصيل بل سيفصل ماضينا الحميد وتراثه المجيد عن حياتنا اليومية لنصبح بلا ماضٍ ولا عقيدة ولا لغة.

ومن الشعراء الذين وقفوا ممتشقين أقلامهم لنجدة الشعر العمودي المقفى الشاعر محمد مصطفى حمام. حيث يقول من قصيدة له:

أوذي الشعر فكم من عابث
خاض في الشعر وكم من أمّعه

وفتى نادى بتجديدٍ فما
جدد الشعر ولكن ميعه

شذّ عن وزن وعن قافية
خاب طحناً فأدار الجعجعه

مزّق الشطر تفاعيل. ترى
عشرة حيناً وحيناً أربعه

أفَمَنْ بعثر عقداً غالياً
مثل من نَسَّقَه أو رصعه

إن يكن ذلك عجزاً لم أجز
من هجا العاجز أو من قرعه

أو يكن عمداً فيا للمكتسي
لم يكرم ثوبه بل رقعه

وفريق عقّد المعنى وإن
صبه في كلماتٍ ممرعه

شاعر يقلقه ديك جاره

صنع الشاعر السعودي عبد الرحمن عوض الحربي قصيدة جعل عنوانها «ديك الأنس» وهذا العنوان مستوحى بطبيعته وباعتراف الشاعر عبد الرحمن بأنه مستوحى من لقب الشاعر العباسي ابن محمد عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام الكلبي الحمصي الذي لا يكاد يعرف إلا بـ «ديك الجن».. والجدير ذكره. أنه قد سبقت في الإشارة إلى ذكر سبب تلقيب الشاعر عبد السلام بديك الجن في موضع وقع في الجزء السابع من هذا الكتاب تحت عنوان «ديك الجن... هو عبد السلام بن رغبان» وذكرت أنه ولد بحمص سنة ١٦١هـ وتوفي سنة ٢٣٥هـ أو ٢٣٦م في أيام المتوكل.

وأعود إلى قصيدة الشاعر عبد الرحمن الحربي التي جعل عنوانها «ديك الأنس» كما أسلفت. فأقول إن القصيدة كانت ذات طابع دعابي في مظهرها لكنها ربما عَنَتْ شيئاً آخر هو أن بعض الجيران يربي بعض الدواجن والحيوانات في منزله فتكون سبباً لإقلاق جاره سواء كان ذلك الإقلاق صادر من الروائح المنبعثة من أماكن تلك الحيوانات أو مما يصدر عنها من أصوات مزعجة توقظ النائم وتفسد موجة الهدوء الذي يطمع فيه الجار من جاره.

من تلك القصيدة التي يصوّر فيها الشاعر عبد الرحمن ديك جاره الذي أقلق راحته قوله:

لـجـاري ديـك يـصـيـح نـهـاراً

ولـيـلاً يـصـيـح مـراراً مـراراً[1]

---

(١) قرأت هذه القصيدة في جريدة الندوة عدد ٩٨٣٣ الثلاثاء ٣٠ شوال عام ١٤١١هـ.

ولكن أين يصيح ذلك الديك؟. إنه يصيح على شرفة جدار محاذ لنافذة بيت الشاعر:

وليس يطيب صياح له
إذا هو لم يعلو قربي الجدارا

فيرفع رأساً ويدلي عرفاً
وخداً يصعر تيها فخارا

ويمشي اختيالا إلى أن يحا
ذي نافذتي يصطفيها اختيارا

فإن هو وازنها اشرأب
بعنق الزرافة عنقاً معارا

والذي يسبب قلق الشاعر من ديك جاره. هو أن الديك يصيح في أوقات يكون الشاعر فيها بحاجة لقراءة كتاب أو كتابة بحث.. أو ما إلى ذلك مما يحتاج إلى الهدوء والبعد عن الضوضاء والأصوات المزعجة.

كأنما كان أراد يسر
حديثاً إليّ فصاح جهاراً

وربما كنت أطالع في
كتاب أو اكتب بحثاً مشاراً

فأفزع من صرخة في هدوء
بليلي أو هدأة لي نهارا



بعثرة أوراق الماضي والشك فيها!!

والشخص المتعلم الذي كان له اهتمام بالقراءة والمطالعة.. وكانت له هواية مسبقة في رصد بعض ما يقرأه أو ما يخطر بباله من خواطر سواء كانت مرتبطة بصدف يمر بها أثناء مطالعاته أو ما يتولّد من قراءة أحداث وتراجم لشخصيات ذات سير متميزة أو مثيرة. أو ما إلى ذلك مما تحتويه بعض الكتب من النصوص التي تستوقف قارئها وتلزمه برصدها حتى يتمكن من الرجوع إليها ومراجعتها.

ـ أقول: إن شخصاً كهذا لا بد أن يكون لديه رصيد بل ركام من الأوراق والقصاصات الورقية التي تطوي منها يد النسيان ما تطوي وتلقى بها في زاوية بعيدة عن ممرّ قطار السنوات التي تمضي بالعمر مضياً نحو ميدان حرفة الكتابة ومعانقة الحرف.

ومن الكتاب والشعراء من يلقي نظرة عابرة على أشيائه قبل أن يستقل قطار رحلته فيجد من الأشياء التي يحسن به استصحابها. ما لم يكن في حسبانه. بل إنه ليفاجأ في كثير من الأحيان بوجود أشياء ربما أنكرتها ذاكرته وشككت في أنها من عمله وإنتاجه إما لسخافتها أو لجودتها فيلزمه التوهم إطالة النظر إطالة يملي عليه الوقوف فيها. بعثرة ركام القصاصات الورقية. ونفسه مملوءة غرابة بوجودها.

والذي يقع في مثل هذه المشكلة ـ يجد حينما يريد تحقيق ما هو جيّد من تلك الأشياء صعوبة. لأن الشك يساوره في أنها ليست من صنعه ولا من مخاض قلمه وفكره.

وقد يتخلى عنها خوفاً من أن تكون سبباً لاتهامه بالسرقة الأدبية إن هو ضمها إلى إنتاجه ونسبها إلى نفسه.

ومن الشعراء الذين راجعوا أشياءهم التي طمرتها عقود السنين وأصبحت ذكريات لماضٍ فات الشاعر إبراهيم خليل العلاف. حيث يقول من قصيدة له عنوانها «الركام المجهول»:

بين أوراقي القديمه
وخطابات حميمه

أدرك الفكر شتاتاً
مغرباً نفعاً وقيمه

يا لها من ذكريات
في ثناياها مقيمه

كم شكاوى ونجاوى
ممتعات أو أليمه

وغرام قد توارى
ذقتُ في يوم نعيمه

كم سباق واكتساب
لم يكن حقاً غنيمه

كم سطور كنت قبلا
أزدري فيها الوليمه

ويحيد الطرف عنها
عادت اليوم عظيمه



البحتري تحت مجهر ابن الرومي!!

والقارئ حينما يمعن النظر في قراءة النقد بصفة عامة. يجد العجب العجاب فيما سطرته بعض أقلام النقاد من عدم صفاء في الرؤية النقدية ومن تحامل في السياق التعبيري تحاملاً يوحي بعدم الحيادية في الاتجاه نحو الذاتية.. بل يعطي دليلاً قاطعاً على أن هناك أموراً شخصية غير طبيعية قائمة بين الناقد والمنقود.

ونحن حينما نريد التحقق من سلامة النقد فإن الاستقراء لا يكفي لترجيح واقعية الناقد في نقده. وتجرده من المؤثرات الشخصية لأن هذا الحكم لا يصدر إلا من ناقد معايش لهما. ومتجرد من المؤثرات النفسية في نفس الوقت.

ونحن حينما نقرأ ما كتب عن شعر الوليد بن عبيد الله بن يحيى البحتري من بحتر بن عتود ثم من طي. ويكنى أبا عبادة الذي ولد بمنبج سنة ٢٠٤ وتوفي سنة ٢٨٤هـ من تقريظ يعطي الحكم على أن البحتري شاعر عصره بل أن هناك من عده من فحول الشعراء ومن أجل طبقاتهم... - وكتب الأدب مليئة بالشواهد من شعره في مختلف الأغراض. لكن ابن الرومي واسمه علي بن العباس بن جريج واشتهر بابن الرومي وكنيته أبو الحسن والذي ولد في سنة ٢٣١هـ ومات سنة ٢٨٣هـ قد طالعنا بنقد عجيب لشعر البحتري. وقد ضمن نقده هذا قصيدة صنف شعر البحتري فجعل جيده من سرقاته ورديئه من صنعته وإن صح نقده هذا فإنه قد جرد البحتري من سمعته وفحولته الشعرية. وجعله شعروراً لا شاعراً. لكن الذي يشفع للبحتري أن ابن الرومي قد

اشتهر بفن الهجاء وقذاعة اللسان والشؤم والاكتئاب النفسي. وهذه صفات تحمل صاحبها عادة على المغالطات وقذف الناس وتقويلهم ما لم يقولوه. واتهامهم بما ليس من شريف الطبع ولا من حميد الفعل..

يقول ابن الرومي في اتهامه للبحتري بالسرقات:

قبحاً لأشياء يأتي البحتري بها
من شعره الغث بعد الكدّ والتعب

كأنها حين يصغي السامعون لها
ممن يميز بين النّبع والغَرب

رُقى العقارب أو هذر البناة إذا
أضحوا على شُعَب الجدران في صخب

حي يغير على الموتى فيسلبهم
حُرّ الكلام بجيش غير ذي لجب

ما إن تزال تراه لابساً حُللا
أسلاب قوم مضوا في سالف الحقب

شعر يغير عليه باسلاً بطلاً
فينشد الناس إيّاه على رقب

حتى إذا كف عن غاراته فله
شعر يئن مُقاسيه من الوصب

شعر كنافض حُمّى الخيبري له
بردٌ وكربٌ فمن يرويه في كرب



الأب المشَرّد

وإذا استبدل الإحسان بالإساءة وصدر العقوق من شخص بعيد الصلة. فإن الأمر لا يورث في النفس كآبة بالغة كصدورها من الابن لأبيه.

وإذا كان عقوق الوالدين غير جائز ديناً وشرعاً وخلقاً بصفة عامة فإن عقوق الوالد الذي أفنىٰ حياته في كد وتعب لسيتريح ابنه بثمرة تعبه وجهده يعد خروجاً على الدين والأدب والأخلاق والأعراف.

وهل يجازى بالعقوق والد كان يغالي في جمع المال وتوفيره لأبنائه ويلجأ في ذلك إلى الاقتصاد الخاص المخل بالمأكل والملبس والمشرب ليزيد في رأسماله ويتوسع في إنماء مشاريعه الاستثمارية؟.. الحقيقة إن أباً مثل هذا الأب لا يساوي في المجازاة من أبنائه بأب يبعثر أمواله ويصرفها في وجوه لا تمت إلى الخير بصلة.

وإذا كان عقوق الوالدين متفاوت في الدرجات فإن من أفظعها وأشنعها وأشدها قبحاً أن يعق الابن أباه عندما يتولاه الكبر. ويصبح لا حول له ولا قوة.

وعقوق الوالد في حالة كبره يحصل في أمور كثيرة أهمها عدم الرفق به والعناية بحاله وصحته والاستيلاء على أمواله التي جمعها بكده وتعبه. ثم تشريده وطلب الحجر عليه بتهمة تخريفه... فأف لعصاة والديهم. وتباً لما أملته عليهم ضمائرهم ونفوسهم العابدة للمال.

والتشفي من أولئك العاقين يأتي من أهل الفكر والأدب ومن الشعراء الذين ينكرون هذا المسلك العقوقي بأساليب مختلفة تصور

الواقع المؤلم لحياة الآباء الذين حرمهم أبناؤهم من فضل مكاسبهم وأموالهم ولم يجازوهم بإحسانهم إحساناً ولا بالشفقة عليهم يوم كانوا أطفالاً بخفض جناح الرحمة لهم والتذلل لهم. . . ـ ومن الشعراء الذين تشفوا من العاقين لآبائهم الشاعر الطيب شبشة الذي أنشأ قصيدة جاء فيها قوله:

رأيت مشرّداً في الليل يبكي
سخين الدمع من قذر الحياة

مُسنٌّ زائغ النظرات يبدو
عظيم الهم. مكتوم الشكاة

وقوله:

حكايته إذا حكيت لعاص
تفرد بالخلافة في العصاة

تحوقل من عجائبها وصلى
وناب من الذنوب المهلكات

وقوله:

تشرد بعد أن أضحى وأفنى
شباب العمر يسرح كالبزاة

فكوّن ثروة تعييه عداً
فأطمع فيه كل ذوي الصلات

فخانوه وقاضوه ونالوا
بحكم الحجر كل «المليرات»

تلقن من عقوقهم دروساً
فأضحى بالأسى جهم السمات

من الشعر ما يحسن التغني به!!

والبحث في موضوع الغناء وكيفيته وشخصياته. . . ـ وما يحسن أن يتغنى به من الأشعار. . كالشعر الحماسي. وما يحسن تجنب التغني به كشعر الغزل الرخيص الساقط. فيه شيء من المتعة خاصة في الجانب الذي فيه إباحة فلا بأس من الاستماع إليه. كأهازيج الحروب وغيرها.

وما قرأته حول هذا الموضوع. ما جاء في كتاب «عبقرية عمر» لعباس محمود العقاد الذي ذكر أنه جيء لعمر برجل يغني في الحج وقيل له إن هذا يغني وهو محرم فقال: دعوه فإن الغناء زاد الركب. . . وروى وائل مولى عثمان بن عفان أن رباح الفهري كان في ركب مع عمر رضي الله عنه. فطُلب منه أن يحدو. ويغني. فاستنكر ذلك مع عمر. فقيل له فإن نهاك فانته فحدا حتى إذا جاء السحر قال عمر: كف فإن هذه ساعة ذكر. وقيل له في الليلة الثانية غنّ غناء القيان فرفع عقيرته. فقال عمر: كف فإن هذا ينفر القلوب.

وخرج رضي الله عنه ومعه صحب بينهم ـ خوّات بن جبير ـ فاقترحوا على خوات أن يغنيهم من شعر ضرار. فقال عمر: بل دعو أبا عبد الله فليغن من بنات فؤاده. فما زال يغنيهم حتى كان السحر. فهتف به عمر: ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا.

وجاء قوم فذكروا أن إمامهم يتغنى في بعض الأوقات بأبيات من الشعر. فقام معهم إليه واستخرجه من منزله وسأله فيما بلغه عنه. واستنشده الأبيات التي يغنيها فأنشده:

وفــؤاد كــلــمــا نَــبّــهْــتُــه
عــاد فــي الــلــذات يــبــغــي تــعــبــي

لا أراه الــــدهـــــر إلّا لاهــــيـــا
فــي تــمــاديــه فــقــد بــرّح بــي

يــا قــريــن الــســوء مــا هــذا الــصــبــا
فــنــي الــعــمــر كــذا بــالــلــعــب

وشــبــاب بــان مــنّــي فــمــضــى
قــبــل أن أقــضــي مــنــه أربــي

نــفــسُ لا كــنــت ولا كــان الــهــوى
أتــقــي الــمــولــى وخــافــي وارهــبــي

فأعاد البيت الأخير. وقال لمن شكوا إليه: ـ من كان منكم مغنياً فليغن هكذا.

ومما تغنّى به الشعراء القدامى هذه الأبيات:

عــفــا رســم الــقــريــة فــالــكــثــيــب
إلــى مــلــحــاء لــيــس بــهــا عــريــب

تــأبــد رســمــهــا وجــرى عــلــيــهــا
ســفــي الــريــح والــتــرب الــغــريــب

فــإنــك واطــراحــك وصــل ســعــدى
لأخــرى فــي مــودتــهــا نــكــوب

وقد ذكر أبو فرج الأصبهاني أن هذه الأبيات لأبي هرمة. وأنها مما تغنّى به ابن جامع.



مواجهة النقد بالانتقاد!!

والذي يقف في ساحة النقد متلفتاً يمنة ويسرة يرى أن الشعر ونقده قد استحوذ على نصيب وافر منها. ويجد أن الشعر قد تعرض لبعض الهجمات النقدية المتصفة بعنف الأسلوب وقسوة العبارة. لكن لسان حال الشعراء يقول:ـ

النقد إذا كان صادراً من ناقد متجرد يجد منّا قبولاً وارتياحاً لأن واقعيته تفرض ذلك أما إذا لم يكن كذلك فإننا لا نقبله بأي حال من الأحوال بل نجابهه بالنقد والانتقاد.

وعلينا أن نتصور شخصاً يقع في ألسنة الشعراء كيف تكون حاله وإلى أي اتجاه يكون مآله.

ونحن عندما نتتبع تاريخ نقد الشعر والأساليب التي ينقد بها نجد أن هناك مداراة من الناقد للشاعر إذا كان حيًّا بينما نجد في المقابل لهذا جرأة على نقد شعر الشعراء الذين تركوا الحياة ورحلوا من الدنيا. وقد يصحب جرأتهم تلك شيء من التعري النقدي وامتطاء الأساليب التي فيها ما فيها من التطاول على الشعراء بما ينافي أدب التلطف بل فيها ما يوحي بأن النقد موجه لعمل شاعر ميت.

ـ والردود التي يجابه بها الشعراء نقادهم بشيء من التعالي الذي لا يستطيع الناقد مواجهته تلجم الناقد وتخرس قلمه.

وهذا الشاعر أحمد زكي أبو شادي يرسم لنا صورة حية تترجم هذا المفهوم فهو قد حدد موقفه من الناقد المجامل ومن الناقد

المحامل. ويظهر مدى عمق عدم المبالاة بهذا أو بذاك في قصيدة ضمنها ديوانه «الشفق الباكي» منها قوله:

رضيت بالناقديها جُهْدَ طاقتهم
فإنهم لن يصيبوا غير جلباب

وما أبالي أجاء النقد من عَلَم
أم جاء من عاجز مُسْتَصْغَرِ هاب

فلن أكون زميلاً للغرور ولن
يكون مني اعتدادي ضلَّة الآبي

ولن ينال الأحدُّ النقد من أدبي
معنى وحسًّا وفكراً ليس بالخابي

جوامع الشعر لا لفظ يقاس بها
وإن تحامل جَهْلاً كلُّ مرتاب

وكم ضحكتُ بإشفاق على مُثُلٍ
من أعجبِ النقد في أوهام كتّاب

لم يفهموا الشعر لا معنى ولا صوراً
وأقسموا أنهم أقطابُ أقطاب

ووزعوا بين أهل الشعر طائفة
من السخافات عُدّتْ خيرَ ألقاب



بيت الشعر يوقف مد النثر

وإذا كان هناك سطر من النثر يحاول انتقاد الشعر فإن في المقابل له بيتاً من الشعر يوقف مدّه. بل ربما ردّه على أعقابه خاسئاً حسيراً يجر أذيال الخيبة.

ـ وحول موضوع نقد الشعر أو انتقاده وما يكتنفه من ملابسات في المفهوم النقدي. كتبت فيما تقدم في أجزاء موضوعات كان دوري فيها دور العارض لها فقط خلا موضوع سبق في هذا الجزء تحت عنوان «مواجهة النقد بالانتقاد» حيث بسطت فيه بكل اختصار دور الناقد للشعر وما يصاحبه نقده من حساسية خاصة إذا كان الشعر المبسوط تحت مجهر النقد لشاعر ما زال على قيد الحياة. وفي هذا الموضوع أعرض صورة من الصور التي تفيض بتحدي بيت الشعر لشطر النثر والوقوف في وجهه.

ولا أذهب بعيداً في اختيار الصورة. فهذا الشاعر أحمد زكي أبو شادي يقف بحزم في كلام مصاغ في قصيدة تبلغ نحواً من واحد وأربعين بيتاً موجهة إلى أحد الأدباء الذين حاولوا نقد شعره بأسلوب ربما كان فيه تحامل أو عدم تجرد.. وقد استفتح تلك القصيدة بقوله:

هون عليك فما شعري بمفتقر
للمادحين وما عتبي لنُقّادي

ولن يعيب نظيمي ذمّ حاسده
فإنّما يزدهي في ليل حسادي

ومنها قوله:

موتى الشعور شعوري لن يصاغ لهم
وإن سمحت به للرائح الغادي

وربما كان للدهماء غُنيتهم
منه وإن كان نبراساً لأفراد

وما أبالي إذا أفتى على سخف
بواد لفظ سَرِيٍّ وهم أضدادي

ويشير أبو شادي في تلك القصيدة بل يحقق أن مما يقوله من شعر هو ذخيرة ذات أصالة لا يؤثر فيها طعن المغرض. وإنما هي تستضيء برأي الدارس لها والمقدر لقيمتها الأدبية.

ذخيرة لن يذل الطعن قيمتها
ولن يفوت سناها العاشق الغادي

فمرحبا بصنوف القدح مُكرمةً
فضلى وناشرةً شعري لقصادي

ويقول معلناً بأن النقد الذي يأتي من المغرض لن يثني عزيمته عما يبذله من جهد في بناء القصائد:

ولن يثبط جهدي قدح ذي غرض
سيان في الحمد أعدائي وأعضادي



همسات بين المعلقات!!

تناولت كتاب المعلقات العشر الذي حققه الأستاذ الشيخ أحمد الأمين الشنقيطي سنة ١٣٥٣هـ. وبينما أنا أستعيد ذكريات شغفي بقراءتها والبحث في معانيها اللغوية وألفاظها البديعة إذا بهاجس يتسرب إلى ذاكرتي من خلال قوافي تلك المعلقات حاملاً عبارة تقول ـ من بعثنا من مرقدنا الذي كدنا نيأس من اليقظة منه؟.

فأطرقت أصغي إلى ما بعد هذه العبارة.. فإذا بلسان حال أبيات امرئ القيس يقول: ـ هجرني حداثيو هذا العصر.. فما مررت على ألسنتهم مرور الدارس أو المتذوق للشعر وإنما رددوا بعض الأبيات التي ورثوها بالسماع من أسلافهم منها:ـ

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ومنها:

وليل كموج البحر أرخى سدوله
علي بأنواع الهموم ليبتلي

ومنها:

وقد أغتدى والطير في وكناتها
بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معاً
كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقد شكا بهذه كل من معلقة طرفة بن العبد. وزهير بن أبي سلمى. ولبيد بن ربيعة وعمرو بن كلثوم. وعنترة بن شداد. والحارث بن حلزّة. والنابغة الذبياني. وعبيد بن الأبرص.

ـ أما معلقة أعشى ميمون فقد بادلت معلقة امرئ القيس التذمر من هجران القارئ لها.. وقد عزت ذلك إلى أن حداثيي هذا العصر قد استصعبوا فهم ما تشمل عليه ألفاظها من معاني. مع المطالبة بالبحث عن حل يعيد لها ولزميلاتها المعلقات مجدها ومكانتها من الأدب. وأشارت إلى أن الحداثيين لها يحفظون شيئاً من أبياتها عدا أبيات عالقة في حافظتهم بالسماع لا بالدرس. منها:

ودع هريرة إن الركب مرتحل
وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

غراء فرعاء مصقول عوارضها
تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل

ومنها:

قالت هريرة لما جئت زائرها
ويلي عليك وويلي منك يا رجل

ومنها:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل



وجد في نجد

«وجد إلى نجد» هذا هو عنوان قصيدة للشاعر السعودي الذي امتزج دمه بماء نجد وهوائها فهيد عبد الله بن عايش. وقد أفرغ فيها حبه لنجد وعشقه ووجده بها.. وقد قرأت تلك القصيدة في مجلة «اليمامة» العدد ١١٨٨ الأربعاء ٤ رجب سنة ١٤١٢هـ فعادت بي إلى تذكر القصيدة اليتيمة التي اختلف في نسبتها إلى قائلها إلّا أن بعضهم رجح أن القائل هو دوقلة بن العبد المنبجي ومطلعها:

هــل بــالــطــلــول لــســائــل ردُّ
أم هــل لــهــا بــتــكــلــم عــهــدُ

ولا أريد أن أقف عندها فقد قتلت دراسة وشرحاً. واستشهد بها على جودة الغزل وعذوبة الجرس وحسن السبك وقوة البناء.. ولعل ابن عايش أحد الذين تأثروا بمعانيها وراقهم بناؤها فقصيدته «وجد إلى نجد» التي قدّم لها بقوله: ـ عندما اغتربت عنك أياماً ـ ويعني بذلك وطنه نجد ـ لم أجد ما أقوله إلّا هذه القصيدة.

والحقيقة أن قصيدته تلك قد جاءت في قالب معارضة للقصيدة اليتيمة وقد تحقق له النجاح بتلك المعارضة حيث جاء فيها بما يروي غليل نفسه من القول التوجدي إلى نجد.. ولهذا وبحكم تاريخ إنشائها فإني أعتبرها أحدث قصيدة عارضت اليتيمة:

يقول ابن عايش في مطلع قصيدته «وجد إلى نجد»:

بــاح الــصــبــاحُ وأشــرق الــسّــعــدُ
وتــنــفــس الــيــشــمــوم والــورد

وفيها يقول:

أهوىٰ الحياة لأنها عمري
وأحب نجد لأنها نجد

يا نجد. بل يا مجد هاك دمي
إن لم تكوني المجدَ ما المجد

كذب الذين تفاخروا كذبوا
أنت الهدى والقدس والخلد

يا نجد إني ما نسيتُ ولا
بدلتُ لكن شط بي البعد

يا نجد يا عشقي ويا أملي
مني إليك الشوق والوجد

وفيها يقول:ـ

نجد لنا ونحبها وطناً
عزاً لها وتُحبنا نجد



موقف يولد قصيدة معارضة!!

ما من قصيدة يأتي بها الشاعر عفوية ودونما مناسبة دعت إلى صنعها لكن من القصائد ما نقرأ له مقدمة تشرح المناسبة وتبين الدوافع التي ولدتها.

ـ أما التي لا نقرأ لها مقدمة توضيحية أو توطئة تساعد على معرفة الظروف التي أوجدتها فإنها تكون هي بذاتها متضمنة ذكر المناسبة التي دعت إلى إنشائها.

أقول ما تقدم بعد ما قرأت قصيدة «الطيف الشرود» التي نشرها ملحق الأربعاء الذي يصدر كل يوم أربعاء عن مؤسسة المدينة الصحفية وذلك يوم الأربعاء ١٤١٢/٦/٥هـ وهي للشاعر محمد محمود جاد الله. وقد كانت في أسلوبها وبنائها معارضة لقصيدة عمر بن أبي ربيعة. وقدم لها شاعرها جاد الله بما نصه:

قرأ عليّ صديق بضعة أبيات من قصيدة عمر بن أبي ربيعة المشهورة التي يقول في مطلعها:

ليت هندا أنجزتنا ما تعد
وشفت أنفسنا مما تجد

وهو لا يفتأ يرددها ويقول هذا هو الشعر لا ما تأتينا به من شعر في الزهد والوقوف على الأطلال وبكاء الديار. فأثار ذلك عندي ملكة التحدي. تحدي صديقي لا تحدي عمر بن أبي ربيعة فكانت هذه القصيدة.

وهذه المقدمة شاهد على أن القصائد لا تأتي عفوية. وقصيدة محمد محمود جاد الله جاءت رائعة من حيث الأسلوب والبناء وفن المعارضة وقد بلغ مجموع أبياتها ٢٨ بيتاً. أختار منها قوله:

أسفرت عن أقحوان وبرد
وسهام نافذات لا ترد

عبثت بالقلب لما أن بدت
أظهرت عينا وأخفت ورد خد

كيفما شاء براها ربها
من جمال ودلال وحرد

فأتت فتانة في سربها
فهي تزهو بشباب وبقد

نظرت أسرت قلبي بها
فهي مثل النبل فيه بل أشد

قال ذاك الطرف لما نظرت
هل أصاب السهم قلبا قلت.. قد

ثم لمّا سرقت قلبي مضت
صار قلبي سلبا لا يسترد

أسرته ومضت تلهو به
لا سلام لا كلام لا قود

وهذا الموقف الذي تعرض له محمد محمود جاد الله يذكرني بما قرأته عن سبب إنشاء «طوق الحمامة» لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ. وبما فيه وجه شبه له.



الشعراء وحرف... الخاء!!

ومن الحروف الهجائية التي لا يبني الشعراء قوافي قصائدهم عليها إلّا بصورة ضئيلة أو نادرة.. حرف.. الخاء. والذال. والثاء. والزاء والطاء والظاء، والغين. والصاد. والضاد: بل لا يحرصون على بناء قوافيهم عليها لأن الكلمات التي تنتهي بها محدودة مما يجعلهم في حالة اضطرار إلى قسر المعاني قسراً يخضعها إلى الاتفاق مع اللفظة التي تتطلبها القافية التي تبنى عليها القصيدة.

ونأخذ حرف ـ الخاء ـ كنموذج لتطبيق البحث في هذا الموضوع والتدليل على أن كبار الشعراء قد تجنبه كقافية لقصائدهم. للسبب الذي تقدمت الإشارة إليه. والخشية من إصابة القصيدة بالضعف والهزل العام الذي قد يتسرب إليها من تكلف البحث عنها. فنجد الشاعر حسان بن ثابت رضي الله عنه لم يطرق قافية على ـ الخاء ـ وكذلك عمر بن أبي ربيعة. وامرأ القيس. والفرزدق. وذي الرمة، وغيرهم كثير.. لا أرى داعياً لذكر المزيد من أسمائهم لأن الباحث في ذلك يدرك ذلك. لأتجه إلى البحث عن نماذج من الشعراء الذين تحاشوا الإيغال في بناء قصائدهم على قافية خائية. فهذا الشاعر جرير لم يقل على قافية ـ الخاء ـ إلّا بيتين. هما قوله:ـ

يا بن كُسَيْب ما علينا مَبْذَخٌ
قد غلبتك فَيْلقٌ تضمخ

لما أتت باب الأمير تصرخ
باسْتِ حبارى طار عنها الأفرخ

وهذا السريّ الرفاء لم يقل على قافية الخاء إلا مقطوعتين إحداهما قوامها ستة أبيات والأخرى ستة عشر بيتاً هجا بها ابن العصب الملجي. منها قوله:

قل لجار الشط: ما هذا الوسخ
هذه دجلة فاخلع وأنخ

واغتسل فهي مباح ماؤها
غير محظور على الجسم الوسخ

وهذا ابن المعتز لم يقل إلا أربعة أبيات على قافية الخاء «أسوار الحبين» وبيتين عنوانهما «الصلع في الحمام» وهما قوله:

يا مُدْخل الصلع حماماً يزيدُهم
بطول مكثهم في جوفه وسخا

حتى إذا عِرقوا من حره شرعوا
وكلهم بخلوفٍ منه قد لُطِخا

وهذا الحسن بن هانئ ـ: أبو نواس لم يقل على قافية الخاء إلا ثلاثة أبيات عنوانها «السلافة الضاحكة» في أربعة أبيات عنوانها «انظر من تؤاخي» منها قوله:ـ

يا غارساً بيمينه
شجر الحفاظ على السباخ

فسد الخلائق كلهم
فانظر لنفسك من تؤاخي



رجب.. في بائيات المعري!!

وشهر رجب هو الشهر السابع من أشهر السنة العربية الاثني عشر.. وهو أحد الأشهر الحرم التي ورد ذكرها في قوله تعالى في سورة التوبة آية ٣٦: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾. والأشهر الحرم هي: رجب. وذي القعدة. وذي الحجة. ومحرم. ـ وقيل لأعرابي يتفقه: كم الأشهر الحرم؟ قال: أربعة: ثلاثة سرد وواحد فرد. ويعني بالفرد ـ رجب ـ وعن صيام رجب قال سعيد بن جبير: أخبرني ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يصوم حتى نقول: لا يُفْطر ويفطر حتى نقول لا يصوم ـ الحديث أخرجه الترمذي والبخاري وابن ماجه والنسائي... ـ وشهرة الأزمنة والأمكنة تجعل منها علماً يتردد في أقوال المؤلفين والكتاب والشعراء ـ وقد تقدم ذكر بعض ما يخص شهر رجب من الشهرة من الناحية الدينية. لكنه من الناحية الأدبية. وفي مجال الشعر بالذات لم يعطه الشعراء حقه حتى في قصائدهم المقفاة بحرف «الباء» عدا فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة أبي العلاء المعري الذي تحكم في القوافي بحكم تبحره في علم اللغة كيفما شاء فهو الذي أنصف شهر رجب وأعطاه حق شهرته في شعره بصفة عامة وفي قصائده ومقطعاته المقفاة بـ «الباء» بالذات بصفة خاصة.

فمن الأبيات التي ورد ذكر شهر رجب فيها قوله:ـ

يُظنُّ بي اليُسْرُ والديانة والعلـ
م وبيني وبينها حُجُبُ

كل شهوري عليَّ واحدةٌ
لا صفر يتقى ولا رجبُ

وقوله من أبيات أخرى:ـ

قد ينجُبُ الولد النامي ووالده
فسْلٌ. ويفسِل والآباء أنجاب

فرجَّبِ اللهَ صِفْراً من محارمه
فكم مضت بك أصفار وأرجاب

وقوله من أبيات أخرى:ـ

لو تعلم الأرض ما أفعال ساكنها
لطال منها لما يأتي به العجب

بدءُ السعادة أن لم تخلق امرأةٌ
فهل تود جمادى أنها رجب

وقوله من أبيات أخرى:

والمرء يُعْييه قودُ النفس مصبحةً
للخير وهو يقودُ العسكر اللجبا

وصومه الشهر ما لم يجن معصيةً
يغنيه عن صومه شعبان أو رجبا



غضب الصديق!!

وإذا كان الواشي يدس أنفه في شيء يتهيأ له فيه موضع. فإن أكثر ما يكون تركيزه على إفساد الصداقة القائمة بين الصديقين. سيراً على مبدأ المستبد الذي يقول: ـ فرق تسد ـ.

وإذا كان الصديقان قد عرفا حقيقة الواشي وماله من أثر سيء في مجتمع يعيش في وسطه. فإنه من الأجدر بهما أن يتحاشيا وقوعه بينهما. وأن يأخذا حذرهما منه بصفة دائمة لتبقى صداقتهما في أمن وسلام من سوء فعله.

لكن الذي يوجد له فرصة الدخول بينهما هو أن لا يكون الصديقان على مستوى واحد من الحذر منه. فيميل إلى ذلك الذي يكون أقل مستوى في الحذر منه. فيلقي في أذنه من الوشاية بصديقه بأسلوب يتقبله قلبه تقبلاً لا يلبث إلا وتظهر نتائجه في صورة تنكر وتصرف موحش لصديقه. فيغضب لذلك صديقه الذي لا يلقى للواشي أذناً غضباً يترجمه في صورة لوم وعتاب وتذمر لا يخرج من أسلوبه عما جاء في قصيدة الشاعر محمد متولي صاحب ديوان «مورد الصفاء ومنهل الشفاء» التي منها قوله معاتباً صديقه الذي أخذ بقول الواشي فقطع حبل المودة وهدم بناء الصداقة.

نسيت مودتي وخفرت عهدي
وتطمع أن تعود إلى وصالي

فلا تطمع إلى قربي فإني
أرى كل السعادة في اعتزالي

وفيها أيضاً يذكر صديقه بأنه لن يجد صديقاً مثله لا يلتفت إلى قول واش همه قطع الصلاة القائمة بين الناس على التواد والتآخي:

ستبحث دون جدوى عن نظيري
فلا تلقى وتعجز عن مثالي

ويذكره بما كان قد جرى بينهما من أحاديث حول صدق المودة.

أتزعم أن ودي ليس ينسى؟
كذبت فأنت صاحب الاحتيال

ثم يهدده بقطع العلاقة لأنه استجاب للواشي وأظهر توحشه.

سأرحل عنك حتى لا تراني
وأبحث عن وحوش في الجبال

أعاشرها وآنس في حماها
فآمن عندها غدر الرجال

ثم يختتم ذلك العتاب الصارخ بقوله:

سأنبذ كل ختّال لئيم
وأفرغ للمآثر والمعالي



من السهباء بالخرج إلى توماء بالشام!!

والسهباء إحدى: قرى منطقة الخرج الذي كان يدخل في نطاق جغرافية اليمامة ومن أعمالها، وهو لا يبعد عن مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية إلّا بنحو ثمانين كم تقريباً.

ـ ومن الخرج ـ بل من السهباء التي كانت تعدّ في أعلى بلاد بني سعد من تميم بدأ الشاعر المشهور جرير بن عطية بن حذيفة الملقب بالخطفي بن بدر بن سلمة بن تميم بن مرة. وكنيته أبو حزرة حيث سمى ابناً له ـ حزرة ـ على وزن فعلة ـ وحزر الشيء: خرصه وقدره سواء كان كيلاً. أو وزناً. أو مسافة. قلت بدأ رحلته التي ذكرها في قصيدة فائية امتدح بها يزيد بن عبد الملك. وهجا فيها آل المهلب ومطلعها:

انظر خليلي بأعلى ثرمداء ضحى
والعيش جائلة أغراضها خُنُفُ

وهي قصيدة طويلة تبلغ نحواً من ثمانية وخمسين بيتاً أثنى فيها على منطقة الخرج بصفة عامة وحبذه على غيره. وكيف لا يكون منه ذلك وهو بلد المياه والنخيل والأرض الخصبة:

يا حبذا الخرج بين الدام فالأُدَمى
فالرمث من برقة الروحان فالغرفُ

أما بداية رحلته ومنطلق أولى خطواته إلى توماء بالشام فكانت من السهباء:ـ

كلفتُ صحبي أهوالاً على ثقة
لله درهمُ ركباً وما كَلِفوا

ساروا إليك من السهبا ودونهم
فيحان فالحزن فالصمّان فالوكف

وعلى ظهور الجمال واصل هو وصحبه السير حتى وردوا نهر بردى حيث آلوا على أنفسهم ألّا يردوا ماء غيره:ـ

لا ورد للقوم إن لم يعزفوا بردى
إذا تجوّب عن أعناقها السدف[1]

ثم بعد وردهم بردى واصلوا السير ليلاً وصَبّحُوا توماء التي يظهر من قوله أنها بلدة سكانها نصارى:

صَبّحْنَ توماء والناقوس يقرعه
قس النصارى حراجيجاً بنا تجف[2]

وبهذا البيت يتخلص من وصف الرحلة والطريق وما قاساه من تعب ومشقة ليبدأ في امتداح يزيد:

يابن الأروم وفي الأعياص منبتها
لا قادح يرتقي فيها ولا قصف

إني لزائركم وداً وتكرمة
حتى يقارب قيد المكبرِ الرسفُ

والحقيقة أنها رحلة ممتعة بالنسبة لقراءتنا لها. لكنها بالنسبة للشاعر جرير وصحبه كانت شاقة جداً ومتعبة كيف لا. ودليلهم النجم وعربتهم الجمال والنياق وزادهم التمر والماء حيث لا قطار ولا زفت ولا سيارة وإنما ناقة وجمل ونعل وجادة بين سهل وجبل.

(١) بردى النهر المشهور بالشام. والتجوب: التكشف. والسدف: الظلمة.
(٢) توماء من أعمال دمشق. وقيل: تيماء. والحراجيج: الضوامر واحدها: حرجوج.

عمر عبد ربه شاعر يجيد فن السخرية بالشعر!!

ويقوم الشعر الساخر مقام الشعر الجاد في طرح وجهات النظر. بل بما فاقه من الناحية التأثيرية. خاصة إذا عرض في أسلوب مهذب وعالج المواضيع التي تهم الناس وتشغل بالهم. وألقى الضوء على المشكلات التي تعاني منها بعض المجتمعات وتلتمس لها حلولاً بأي أسلوب وبأي لغة. وبأي لهجة.

والشاعر الساخر يطرق بشعره فنوناً قد لا يطرقها الشاعر الملتزم بجدية الأسلوب والتعبير وذلك لأنه يتسير له ذلك برفع الملامة عنه حينما يمزج اللغة الفصحى بعامية المجتمع الذي يعرض مشكلاته في قالب ساخر فيجد بذلك المزج أذناً صاغية بين مختلف طبقات ذلك المجتمع. ويوقظ بسهولة لفظه وجاذبية تعبيره في نفوس الناس هاجساً ما خطر على بال ولا رمى إليه تفكير.

والشاعر الساخر يشبه في ميدانه بالخريت في الفلوات والمهامه فهو يعرف الاتجاه ويعرف الطريق القصد في القرب والبعد.

ومنذ أن وجد الشعر بالمفهوم الذي نعرفه ونفهمه وجد الشاعر الساخر ولهذا فإنه ما من عصر من العصور الماضية منذ الجاهلية إلى يومنا هذا إلّا ويوجد فيه شاعر ساخر يعالج بعض الأمور بأسلوبه المتميز بخفة العبارة للواقع الذي يخفىٰ على غيره من الشعراء.

وفي عصرنا نحن المجتمع السعودي ظهر شعراءيمارسون هذا اللون من الشعر منهم الشاعر أحمد قنديل. الشاعر محمد سعد المشعان. وعمر يوسف عبد ربه الذي أختار من شعره شاهداً لهذا الموضوع. وهو

أبيات أودع فيها شيئاً من التعبير المرح الذي يدور حول فن الطبخ. وتحقيق قول الحكيم «أربط يدك وهي سليمة ثم أعرضها على الأطباء يظهرون لك فيها داء». يقول من تلك الأبيات:

اضبط أمورك حتى الشغل يتزن
وراقب الله في الأعمال تغتنم

فكل شغل يؤدَى حسب خطّته
بكل نصح وإتقان له زخم

كذا الطبيخ إذا ما كان منسبكا
مع البهارات قد تلقى له طعم

فكل شيء إذا أعطيت واجبه
له تماماً ستلقاه له كلم

فخل دربك يا بن الناس متجها
إلى الأمام وخل القول منسجم

قال الأوائل قولاً كله حكم
اربط صباعك صحًّا ليس ينفصم

قول الأوائل ما من شك يحكمه
عقل مدبر.. لا يرقى له سقم

يا من تقولون أقوالاً منمّقة
لا رأي فيها ستلقوْها كما العدم



ضحكة السخرية!!

يقف المرء حينما تكتنف نفسه المصائب أو تحل بوطنه المخاطر مبهوتاً ليس في مقدوره دفعها أو مدافعتها بشيء من وسائل المقاومة. فتثور ثائرته عندما تمتزج الحسرة مع الكمد داخل نفسه امتزاجاً يبثّ على ملامحه الكآبة لأنه مغلوب على أمره وليس في استطاعته كما أسلفت فعل أي شيء يخفف عنه ثقل تلك الوطأة التي جعلته يرسل الدمع ساخناً.. ويلحق التأوه بالتأوه الذي يتخلله شيء من وصف الهول الذي يعايشه.. وعندما يجف الدمع وينضب نبعه وتغور منه المقلة يطلق ضحكة تعدّ آخر ما يملكه من وسائل التعبير الرمزي الذي يصور عظم المأساة. وحجم المصيبة التي جرّعته مرارتها يد لا قبل له بها.

وتوصف تلك الضحكة التي تأتي معبرة عن الغيظ بالسخرية من قوي. استضعف وظالم استبدّ... فكأنما لسان حالها يقول: ـ أعليّ تظلم؟ وبي تستبد!! وأنت الضعيف الذي لا يقاوي والمسكين الذي لا يصادم. والمجرد الذي لا يقاوم!!

يا لها من مهزلة وسوء سياسة وتصرف أحمق.

ومثل هذه الضحكة الساخرة كثيراً ما ترتسم على وجوه الشعوب التي كبت الاستعمار حريتها واستنزف طاقاتها المادية. وأسكت صوتها وامتص دماءها. واستبد بخيراتها.

يقول الشاعر عبد الرحمن الخميسي من قصيدة نظمها عام ١٩٣٨م وضمها إلى ديوانه «ديوان عبد الرحمن الخميسي» وجعل عنوانها «صرخة» منها قوله:ـ

علام أضحك والآفاق باكية
والشمس تحجبها الأنواء والظلم

والريح قد زأرت في السهل فاختنقتْ
بها الأزاهير صرعى وهي تبتسم

والسيل يجرف من يلقاه مزدهراً
حيًّا ويترك من أحرى به العدم

والنار تأكل ما اخضرّتْ منابته
أما الهشيم فتحمي عمره الرّمم

ويكرر الخميسي ضحكة السخرية مما يعانيه من الأشياء التي ذكرها فيقول:

علام أضحك يا ويلاه من زمني
وشاطئ فوقه الأهوال ترتطم

لكنها ضحكة البركان قاذفةً
من قلبي النار أذكى أصلها الألم

إني أقول لهذا الظلم في صلف:
اشرب دمائي.. واثمل أيها النّهم

وخذْ... فهذا فؤادي في يدي قلق
واشبع.. فهيهات يغشى مهجتي سأمُ



ثورة في الطريق إلى النهاية على فلسفة القناعة!!

والثورة على فلسفة القناعة تمضي مع الناس في مشوار الحياة الذي لا بد لكل حي أن يأخذ دوره فيه كاملاً بالأسلوب الذي يستطيعه وبالعقلية والأخلاقية التي يملكها. ولهذا فإن مشوار الحياة يحتمل تفسيرات تولد لدى بعض الناس قناعات بواقعية تلك الثورة. على الرغم من أن جميع التفسيرات وإن اختلف أسلوب عرضها تلتقي في نظر جميعهم عند نقطة واحدة اسمها ـ نهاية المطاف.

والذي يأخذ في ممارسة ذلك المشوار بمبدأ الحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه والذي منه قوله ﷺ: «إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس». نجده لا يأبه بقرب أو بعد نقطة النهاية التي بدأ مشواره إليها بقدر ما يهمه ما يجمع من المال ويوفره لأبنائه. وهذا يكون سعيه مشكوراً إذا كان متجنباً للحرام ومحسناً المعاملة مع من يأخذ منه ويعطي ويبيع ويشتري.

أما الذي يمارس المشوار وفي نفسه يقيناً بعدم جدوى كد النفس وحملها على نيل المناصب وإقحامها في سجل الوجهاء فإنه يلتمس لاستكانته عذراً ويبحث عن شواهد تؤيد تقاعسه وفتوره عن طلب الرتب ومجالس الصدارة فتراه يردد قول أبي العلاء المعري:ـ

وقد طال عهدي بالشباب وغيّرت
عهود الصبا للحادثات عهود

وزهّدني في هضبة المجد خبرتي
بأن قرارات الرجال وهود

كأن كهول القوم أطفال أشهر
تناغت. وأكوار القلاص مهود

وقوله أيضاً في موضع آخر:-

القبر لا ريب منزول فما أربي
إلى ارتقاء رفيع السّمْكِ مصعود

وقوله من قصيدة أخرى:

لا تغبطوا رجلاً على ما ناله
إن بات قد ساد الرجال ولم يُسَدْ

فحوادث الأيام غيرُ توارك
نسر النجوم. ولا السماك. ولا الأسد

ويكثر أبو العلاء من هذه الصور فيقول من قصيدة له:

ما يصنع الرأس بالتيجان يعقدها
وإنما هو بعد الموت جلمود

وفي موضع آخر يقول: إن الأجل كفيل بأن يصيّر ذلك الذي قد صار شيئاً. إلى لا شيء.

كم ساد في مدة الأيام من رجل
ثم انقضى. فهو مثل المرء لم يسد

وعلى تعشق هذا النمط المطالب بالدعة تتربع همته وتمضي حياته.



أيهما يسمو بصاحبه

قال صاحبي الذي كثيراً ما يدقق ويحقق في الأمور الأدبية التي ترتبط بعض مفاهيمها بمستندات جديرة بالفحص وإمعان النظر فيما لها من تأثير إيجابي وسلبي على تلك الأمور: ـ نحن عندما نتحدث عن الشعر ومشاعره ونضعهما تحت مجهر الناقد.. وفوق محك المفاضلة.. يبرز سؤال يقول: ـ أيهما يسمو بصاحبه: الشعر أم الشاعر؟.. والإجابة على ذلك تحتاج إلى شيء من التحليل الذي يصنع دون القطع بأفضليتها على صاحبه إشارة ملوّنة تفرض على الناقد تأملها قبل أن يجزم في قوله بالتفضيل... وهذه الإشارة تمثل بتلوينها منطقاً لا أقول فلسفياً بحتاً لأنه يترجم الواقع لحياة الشعراء... إذ أن هناك شاعراً ذو منصب وجاه ومكانة اجتماعية مرموقة وهذا يسمو شِعْرُه به لأنه متى ما قال قصيدة وجد لساناً تحركه المادة بالثناء عليها. وأكفاً تصفق وهي تتطلع إلى شيء من نواله.

وهناك شاعر يسمو بشعره لأنه يصنع شعراً يرقى به إلى المكانة التي لا يجرؤ أحد على رفض قبوله أو نعته بما يعيبه ويخذل صاحبه فهو به مقدم ومحترم. وإن كان لا يملك قطميراً ولا صاحب منصب ولا وزيراً.

ـ وهناك حالة وسطية في الشعر تتعاورها الأقلام. لأنه لا يحميها جاه صاحبها بالصورة التي تقدم ذكرها.. ولا هي تفرض نفسها بالحكمة والإحكام وتقف صامدة تذل لهيبتها أقلام النقاد أو المتناقدين.

وكأني بذلك الذي يسمو به شعره ويجل به قدره ينشد قول الشاعر الدكتور صالح الرّحال.

إذا شممتَ عبير الشعر واحترقت
في أصغريك القوافي الآية العجبُ

وسال من قلم الإبداع منتظماً
في الطرس ترصده الأفلاك والشهب

هوى يفتِّتُ أكباد الصخور لما
يجتاحُهُ من لفيح وقْدُهُ لهبُ

أو فكرةٌ من خيال شاء مبدعُها
أن يشتهي ثغرها التاريخ والحِقَبُ

أو أنها من سماءٍ كوثر سُفحتْ
أو زفرة من عميد هدّه النصبُ

وإن سموتَ به حتى التحفت سُهىً
وطرتَ والكون مشدوهٌ ومضطربُ

وأنت في عالم سحري لإملاء
يرقى إليك ولا يقتادك الطلبُ

فاعلم بأنك أنت الشعر مبدعه
لا فرق بينكما. أو أنتما الأدب



شكل القلم وفعله!!

ولو قيل لي كيف شكل القلم وفعله؟ لقلتُ: ما هو إلّا آية متمثلة في جسم تفنَّن صانعه في صنعه حتى أصبح رشيقاً تحتضنه الجيوب وتظهر له الأنامل أدباً متمثلاً في صورة الرفق به والتكيف مع رقة طبعه وجمال شكله.

أما فعله: فلا أزيد عن القول: ـ كم من سفر سطره. وكم من يد تعاقبته. وكم من قرن من الزمان عايشه.

وهو بطبيعته لا يكل ولا يمل. تتزاحم على سنه الرشيق كلمات الشاعر والأديب والكاتب تزاحم الظامئات من ذوات الأنفس الرطبة على حوض الماء فيمدها بما يشفي غليل ظمئها. ويودعها في بطون الكراريس والدفاتر بعد أن يكسو حروفها من جمال الشكل وبديع التنميق ما يجعلها معشوقة لكل قارئ وباحث ودارس.

والناظر في شأن القلم ومكانته لا ينتهي به نظره إلى حد معين. لأنه أداة علم ورمز حضارة.. ولهذا فهو ينافس السيف على السلطة والقيادة حينا ويتحد معه حينا آخر فتكون القوة والسياسة وليدة ذلك الاتحاد.

وبلوغ القلم هذا المقام الشريف والرفيع جعل الشعراء والكتاب يتغَنَّون في مساءلته ومناجاته فهذا الشاعر محيي الدين عطية يتناول قلمه في قصيدةٍ[1] منها قوله:

---

(١) القصيدة: منشورة في العدد «١٨٠» من مجلة الفيصل السنة ١٥.

أي سحر فيك يستهوي القلوبا
أي نبع دافق يأبى النضوبا

قلتَ لي يوماً: زهوري شائكاتُ
سترى من جرحها الدامي ضروبا

قلتُ فالحق الذي حملتنيه
أزهق الخوف فجاوزتُ الخطوبا

قلتَ لي يوماً: سماواتي غمام
لن ترىٰ في أفقها إلَّا غروباً

قلتُ: فالعشقُ الذي ملكتنيه
أورقت أغصانه شعراً طروباً

وأنينا وانفراجاً. وعبوساً
وحنيناً. وابتساماً. وقطوبا

قلتَ لي مهلاً فأبقاري عجاف
لن ترى من بينها ضرعاً حلوباً

قلتُ: فالدرسُ الذي علمتنيه
لم تزل آثاره عندي دروبا



النموذجية في الصحف تستحق الثناء!!

يرتبط قلم الكاتب والشاعر بجريدة أو مجلة. فتكون هي ميدان سباقه ومحطة أفكاره ومصب خواطره وتجلياته. وتحتل من نفسه مكانة لا يعدلها سواها. وتأخذ من إعجابه ما يأخذه الكتاب الذي يفضله على سائر الكتب.

ونحن في عصرنا هذا نعرف ميول الكاتب والشاعر من خلال انتمائه إلى المجلة أو الجريدة التي يلازم الكتابة فيها فنتبين ما يكتبه اتجاهاته الفكرية والأدبية وأخلاقيات ثقافته.

والحقيقة أن الشاعر والكاتب إذا لزم الكتابة في صحيفة ما فإنه لا يلتزم ذلك إلّا بعد قناعة ببلوغها المستوى الذي يرى من خلال إدراكه لمنهجها أنه مستوى يفخر بأن يكون هو من دعائمه.

وإذا اقتصرتُ في سياق نموذج من هذا الاتجاه في صحفنا السعودية أجد أن كتاباً وشعراء غير سعوديين يطمعون في الكتابة فيها.. وهذا الطمع لا نعده إلّا طمعاً أدبياً راقياً ومحاولة في مجاراة الأقلام المرموقة التي يضمّها إطار الصحيفة. فإن «المجلة العربية» التي ما كتبتُ بها موضوعاً واحداً يكون مبرراً سطحياً لاختياري لها. تُعَدُّ في الحقيقة واحدة من المجلات العربية التي تبرز في المقدمة نحو إرضاء القارئ العربي الذواق للأدب والثقافة الواسعة.. على أنني لا أنسى مجلة «المنهل» ولا مجلة «الفيصل» فهما صنوان للمجلة العربية وفخرنا بهما عميق.. ولكن اختياري للمجلة العربية قد أثارته قصيدة للشاعر المصري رفعت عبد الوهاب المرصفي التي قالها بمناسبة مطلع العام السادس

عشر للمجلة. وقد أثنى عليها ثناء يليق بها وبالمستوى الذي بلغته. فرأيت من الواجب عليّ أن أشيع هذا الثناء فاخترتُ من تلك القصيدة البالغة ١٩ بيتاً هذه الأبيات:

يا نبع أفكار العروبة هاتي
وتدفّقي بالنور في الجنبات

ها أنتِ جامعة الثقافة كلها
صرتِ الرياض تفيض بالنفحاتِ

تمضي السنون وأنت نجم رائع
يهمي ضياءً في دُجى السنوات

كم طال شوقي يا مليحة للسنا
ولغير وجهك ما جرت نظراتي

وقوله:ـ

قلبي وفكري يا أصيلة عندكم
وأنا المتيمُ في هوى الصفحات

رفقاً بقلبي يا أغرّ مجلة
فلقد أصبت بأول النظرات

* * *

يا كل قراء العروبة إنني
أفضي إليكم بالذي هو آت

أني أحبّ «اليعربية» وحدها
ولقد رفعتُ بعزّها راياتي



هل تَذَكّرُ المواعيد يُنْسِي المواعيد؟!!

وإذا كان هناك اتفاق على أن الذي لا تكثر مواعيده. لا ينسى المواعيد. فإن هناك تساؤلات عن أسباب نسيان المواعيد عند من تكثر مواعيده.. أهو الانشغال بالمقارنة بين المهم والأهم منها فيتعرّض جزء منها للنسيان. أم أن الانشغال بتذَكُّرِ المواعيد جميعها ينسي المواعيد؟.. وهذا التساؤل قد ختم به الشاعر درويش الأسيوطي قصيدة له. عنوانها «مواعيد» حيث قال:

أقول: هل كذبوا.. أم أن واعدنا
أنسته ذكر المواعيدِ المواعيدُ

أما مطلع تلك القصيدة فهو قوله:

ميعاد «عرقوب» أم منك المواعيد
يلذُّ من خلفها للقلب تنهيدُ

والتذمر من إخلاف المواعيد أو المماطلة بالوعد لغة دارجة على ألسنة شعراء الغزل. فهم أكثر من يتهم صاحبه بالمماطلة وإخلاف الوعد. لكنهم يعرفون بحذاقتهم كيف يصوغونها في عبارة فيها تلطف. وليس لخشونة اللفظ فيها ما ينافي التأدب والتعطف. ولا غرو في ذلك لأنهم يبحثون في نفس الوقت عن العذر الذي يجد قبولاً حسناً من المخلف للوعد ليحصل به تحديد وعد يكون بلسماً للأمل الذي جرحه ذلك الخلف.. ثم هم يُتْبِعُون ذلك العذر بشيء من الاعتذار الذي يأتون به على لسان مخلف الوعد ليسلوا به أنفسهم ويجددوا به في عالم أحلامهم الوعد. ويستذكرون به المكان

الذي قد تم فيه اللقاء وحصل فيه الفراق بعد تحديد موعد لتجديد اللقاء.

يقول درويش السيوطي من قصيدته الآنفة الذكر:

قالوا: قريباً سيأتي والذي وعدوا
له بقلب فتاك الصب تغريدُ

فبتُّ أحلم باللقيا وأرقبها
كأنما القلب طفل شاقه العيدُ

* * *

أبحرت والشمس في عينيك مرفؤنا
شط تُضمّخه عطراً أناشيد

عيناك سطر من الأحلام أقرؤه
إن يذهب الحلم في عينيّ مرصود

وقفت حيث وقفنا حين فرقتنا
ترن في مسمعي منك الأغاريد

ومنها قوله:

رجعتُ يثقلني قلبي وحسرته
أبكي الفراق فتهتزُّ الجلاميدُ

○○○○○

مزج السياسة بالفعل المرعب
فيه تخلص من المستعمر

لا أظن هناك جنف في القول. إذا قلنا أن الفلسفة عنصر من عناصر السياسة في بعض الحالات والوجوه. وأن السياسة تكون ركيزة من ركائز الفلسفة في وجوه أخرى.

وإذا لم يكن هناك اعتراض على صحة هذا التمازج بين السياسة والفلسفة فلا بأس من الدخول في هذا الإطار للبحث عن مفهوم سلطة السياسة، وعن قوة فاعلية الفلسفة. والقول بأن الجانب السياسي من الحياة التعاملية بين الشعوب يدرك في كثير من الأحيان من خلال الصراحة. ومن طبيعة التعامل والتواثق.

أما الحالة التي يجب أن تبرز فيها علاقة الفلسفة بالسياسة بروزاً ضرورياً فهي تلك التي تحدث من جرّاء سحب سلم السياسة من تحت الأقدام سحباً لا يجدي معه إلّا التحاور مع النفس ومسايسة الذات.. وهذا النمط من الحياة لا يكون إلّا بين قوي وضعيف. وهو ما طبقه المستعمر الذي يُحَرّمُ على الشعوب التي استعمرها الدخول في مجال السياسة ليضمن استمراريّة استعماره.

وحيث أن العقل البشري يبحث دائماً عن مسلك بديل عن المسلك الذي يرى أنه قد سُدَّ في وجهه. فإننا نرى من بين الشعوب المستعمرة رجالاً يصورون بالمنطق الفلسفي ما تقاسيه أمتهم على أيدي مصاصي دماء الشعوب من كبت وتكبيل وإرهاق واضطهاد. ويطالبون أبناء أمتهم بزلزلة الأرض من تحت أقدامهم بأسلوب ممزوج بفلسفة

التنفيذ المرعب وطبيعة القول المألوف في السياسة. بل هم يفضلون في منطق فلسفي التشبه في إقلاق المستعمر بما تفعله الكوارث من تشتيت وتشريد ودمار ليرحل وهو ذليل صاغر.. ومن صور الفلسفة في هذا الموضوع ما جاء في المقطوعة الشعرية التالية التي نظمها الشاعر العراقي محمد رضا الشبيبي سنة ١٣٤٦هـ إبان الاستعمار الإنجليزي للعراق:

كفى يا مسقط الوادي اندفاعاً
ألا ترعى الجزيرة والعراقا؟

طغى الوادي كشعب أحْرَجُوه
فما احتمل الهوان ولا أطاقا

ولما قيّدوه ليستفيدوا
أبى من قيده إلّا انطلاقاً

بربك أيها الوادي أفدنا
وعلّمْ كيف نفتك الوثاقا

ألسنا أمةً ضجرت وملّت
من الباغين رقاً لا انعتاقاً

توخيْتَ العمائر باذخات
وجانبت الصّغائر والدقاقا

كأنك إذ تخيّرتَ المباني
هممتَ بهنّ قصداً لا اتِّفاقا

كسا الفيضان أربعنا ثياباً
مصندلةً وأرديةً رشاقا



الخيط في أسلوب الغزل ضرب من الفلسفة

والبحث في جودة تمازج الأسلوب الفلسفي مع التعبير الغزلي المألوف. ومدى تأثيره على نفس القارئ... لا يأتي بنتيجة إلّا من خلال قراءة مادة شعرية عصرية دبت فيها روح الفلسفة الوصفية وتحركت في معانيها دفقات الأسلوب الفلسفي الذي ينعش ما هزل فيها من كلمات عادية أو عارية من مسحة الشعر.

والذي يحمل بعض شعراء الغزل في عصرنا هذا على إيجاد أسلوب فلسفي في تغزلهم هو الميل إلى تجديد الوصف في أسلوب الغزل بلون من ألوان الأدب المتميز.

والحقيقة أن الفلسفة المعنوية إذا تخللت أخلاقية القصيدة الغزلية بشيء من التعبير عن واقع ملموس.. أو صاحبتْ خاطرة مرحةً أو خيالاً متجلياً فإنها تأتي بما يشبه الجديد في ظاهر القصيدة ومعناها. بل وتحقق شيئاً يزين القصيدة ويضفي عليها رداء موشى ومكفوفاً بخيوط ذهبية جذابة.

قرأت في الآونة الأخيرة قصيدة للشاعر عبد العزيز محمد الشراكي عنوانها «بريد الخيط» وقد حاول الشراكي إدخال المنطق الفلسفي على التعبير الغزلي المألوف الذي تشكلت منه القصيدة فنظم ذلك في خيط مصبوغ بصبغة الأسلوبين الفلسفي والتغزلي - هذا إذا كان يقصد بالخيط الذي ورد ذكره في القصيدة. الخيط المعروف والظاهر في المعنى العام للقصيدة. يقول الشراكي في تلك القصيدة التي تبلغ تسعة أبيات ونشرتها «المجلة العربية في عددها ١٧٣ جمادى الآخر سنة ١٤١٢هـ.

مِنَ الخيط السعيد تخيطُ ثوباً
كنور الصبح مبتسماً سعيدا

فهذا الخيط سوف يصير شيئاً
إذا هو خيّط الثوب الجديدا

رأيت الخيط مختالاً بكبر
يغنّي فرحة الدنيا نشيدا

غبطتُ النعمة الكبرى عليه
فإن الله أعطاه المزيدا

يسير على دروبٍ من حرير
ويلمس جسمها الحلوَ الفريدا

* * *

حضنتُ الخيط في كفي بحب
لعلّ الخيط يعطيها البريدا

فيخبرها بأن القلب يشقى
وأن الحب قد أمسى شديدا

فترحم عاشقا قد ذاب عشقا
يموت على محبتها فقيدا



فعل المغنيات البغداديات زمن التوحيدي

في الوجهاء والشخصيات!!

ولقلم فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة أبو حيان التوحيدي المتوفى سنة ٤١٤هـ وقفات متنوعة في فروع الأدب أهم حصيلتها كتابه «البصائر والذخائر» و«الصداقة والصديق» و«الهوامل والشوامل» و«الإمتاع والمؤانسة» و«الرسالة البغدادية» وفي هذه الرسالة ذكر شيئاً من مجالس الطرب والغناء ببغداد. وذكر في ثناياها الشهيرات من المغنيات في بغداد. وبعضاً من الأشعار التي تفنن في نظمها وضمنها ذكر من يخرج به الطرب عن الحد المألوف عند سماعه للمغنيات اللاتي منهن - قهوة جارية ابن الرصافي - و - صلفة جارية أبي عائذ الكرخي - وبنت حسنون التي طرب لغنائها ابن الحرز الذي يعد كاتب عدل حينما غنت هذه الأبيات:

رسل الغرام إليك تترى

بالشوق ظالعة وحسرى

إن الصبابة لم تدع

منّي سوى جسدٍ معرّى

ما جفّ للعينين بعـ

ـدك يا قرير العين مجرى

وخلوب جارية أبي أيوب القطان. ودرة جارية أبي بكر الجراحي التي طرب لسماعها ابن جبر القاضي. وعلية التي أطربت قاضي القضاة أبا محمد عبد الله بن أحمد بن معروف حينما غنت:

أنيري مكان البدر إن أفل البدر
وقومي مقام الشمس ما استأخر الفجر

ففيك من الشمس المنيرة نورها
وليس لها منك المحاجر والثغر

وفتوة القصرية جارية ابن الحجاج. وخاطف التي طرب لسماعها الشاعر المشهور ابن نباتة. وسندس جارية ابن يوسف التي طرب لغنائها ابن الأزرق الكلواذي. وعلوة جارية ابن علوية التي طرب لغنائها أبو محمد البرداني ونهاية جارية السلمي التي أطربت فيمن أطربت ابن المتيم الصوفي. وريحانة جارية ابن البريدي التي أطربت ابن غيلان البزار. وترف الصّبابة التي طرب لغنائها ابن الصوفي. وأقحوانة جارية ابن الأعمى التي أطربت ابن البخاري ومنتظم وعلوة جاريتي بنت خاقان اللتين أطربتا المهدي. وحبابة جارية أبي تام الحسن بن محمد الزيني التي طرب لها ابن غسّان البصري. وروحة جارية ابن الرصافي التي أطربت به الوراق حينما غنت:ـ

إذا أردت سلواً كان ناصركم
قلبي فهل أنا من قلبي بمنتصر

فأكثروا أو أقلوا من إساءتكم
فكل ذلك محمول على القدر

ودلال. جارية ابن قهوة التي أطربت فيمن أطربت أبا سعيد الرقي حينما اندفعت تغني أبياتاً منها:ـ

سررت بهجرك لما علمـ
ـتُ أن لقلبك فيه سرورا



إحصائية من أبي حيان عن المغنين في بغداد في عصره!!

قال أبو حيان التوحيدي المتوفى سنة ٤١٤ هجرية بعد أن استعرض عدداً كبيراً من أسماء المغنين والمغنيات في بغداد. والتي ذكرت بعضاً منها ومن أسماء الذين طربوا لغنائهن في موضوع تقدم في هذا الجزء عنوانه «فعل المغنيات البغداديات في زمن التوحيدي في بعض الوجهاء والشخصيات».

أقول: قال أبو حيان التوحيدي: - ولو ذكرت هذه الأطراب من المستمعين. . . والأغاني من الرجال والصبيان. والجواري والحرائر. لطال ومُلّ. وكنت كالمزاحم لمن صنف كتاباً في الغناء والألحان. ولعهدي بهذا الحديث سنة ستين وثلاثمائة. وقد أحصيت أنا وجماعة في الكرخ أربعمائة وستين جارية في الجانبين. ومائة وعشرين حرّة. وخمسة وسبعين من الصبيان البدور يجمعون من الحسن والحذق والظرف. ما يفوت حدود الوصف. . هذا سوى من كنا لا نظفر بهم. ولا نصل إليهم لعزّتهم. وحرسهم. ورقبائهم. وسوى من كنّا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء والضرب إلا نشط في وقت أو ثمل في حال وخلع العذار في هوى قد حالفه وأضناه. وترنمّ ووقّع. وهزّ رأسه. وصعّد أنفاسه. واستكتم جلاسه. وكشف حجابه. وادّعى الثقة بالحاضرين والاستنامة إلى حفاظهم. هذا يا سيدنا دأبهم. وهذه آدابهم. وصف يعجبك وقصف يطربك. ومعان تروقك. وأغان تشوقك.

وبعد هذه الإحصائية التي تفوق الخيال. وما أشار إليه من أن

هناك فئات متسترة على نفسها ولا يمكن حصرها. يختم ذلك بأبيات غزلية لم يشر إلى قائلها ومن المحتمل أنها من شعره. وفيها يقول:ـ

يا خليليّ قد طغى الشوق جدّاً
فافرحا في ملامتي أو فجدّا

بأبي الشادن الذي أخجل البد
ر ضياءً وحيّر الغصن قدّا

أي خدٍ رأيته لحبيب
يجتني منه لحظ عينيّ وردا

أي ثغر عهدته لحبيب
لثمه يثلج الجوانح بردا

أي ريًّا شممتها تفتق المسـ
ـك بمسك وتعبق الند ندّا

يا خليليّ كان هذا ببغداد
لنا عند من نحبّ معدّا

يا خليليّ خلياني وصوتاً
جل طيب اقتراحه أن يحدّا

زعما أن من تباعد يسلو
وقد ازددتُ مذ تباعدتُ وجدا



هل يعف الضمير إذا فسق البصر؟!!

يقف ممعن النظر في شعر الغزل حائراً بين التصديق والتكذيب. لكنه سرعان ما يتبادر إلى ذهنه أنه تَصَوُّرٌ ومُجَرّد تخيّل لا حقيقة له. مصدقاً بذلك قول القائل ـ أعذب الشعر أكذبه ـ ومؤمناً بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٦].

ثم يمضي في استجلاء الصورة الغزلية بعيداً عن تحقيق واقع الصورة. وصحة الوصف. وتصور العلاقة بين الشاعر وبين من كان يتغزل فيه مكتفياً في ذلك بالنظر إلى الصورة الجمالية في اللفظ وحسن التعبير الذي تعشقه أذن الولهان وتتكيف معه نفس العاشق المغرم بحب الحسان.

وتمضي بالدارس الرغبة في تحقيق منهج العذريين في الحب فيجد في البحث عن ذلك شواهداً من أقوالهم تنفي عنهم أي شبهة تقربهم من أقوالهم أو تحقق وقوعها في ذاتهم. ويجد لدى شعراء الغزل المتقدمين مثل عمر بن أبي ربيعة المخزومي إمام أهل الغزل. والذي لم يلحق به أي شاعر في ميدان التغزل بغيته حيث يقول عمر. بل قيل إنه منسوب له.

إني امرؤ مولع بالحسن أتبعه
لا حظ لي منه إلّا لذة النظر

ويؤكد أبو الفضل عباس بن الأحنف من بني حنيفة أن الضمير الذي تغمره التقوى يكون عفيفاً عندما تفسق العين فلا يحمل صاحبه على سوء الأخلاق ورذائل الأفعال. وذلك بقوله:

هل تأذنون بصب في زيارتكم
فعندكم شهوات السمع والبصر

لا يضمر السوء إن طال الجلوس به
عف الضمير ولكن فاسق النظر

والعباس بن الأحنف يشير في موضع آخر إلى أنه لا يملك عينه التي ترمى بالنظر ما تراه من الحسن. لكنه يقاومها بتبغيض النظر إلى ذلك. وذلك بقوله:

إني لأطوي الهوى كي لا يطيف به
ظنٌّ وأجحد ما يطوي إذا انتشرا

حتى أغمّ بمن لا أشتهي بصري
عمداً وأصرف عمن أشتهي البصرا

ترميه بالودّ عينٌ لستُ أملكها
حتى إذا نظرتْ بغّضتُها النظرا

ويؤكد الشاعر عباس بن الأحنف أنه على الرغم من أنه قد وقف شعره على التغزل إلا أنه لم يمارس في عشقه خطيئة تخل بالأخلاق. وإنما هو مجرد ذكر وقول ليس إلّا.

أما التي عاتبتِ في أمرها
بما تظنين من أمر

فهو كما قُلتِ ولكنني
لم أرتكب شيئاً سوى الذكر



أبو العلاء المعري لا يعد الرجز شعراً.. فلماذا؟!

والبحث في أمر عدم احتساب أبي العلاء شعر الرجز من الشعر الذي لزم فيه ما لم يلزم ربما يقودنا إلى اتهامه بعدم الاستطاعة على الإتيان برجز مثل الذي قرأه من رجز لمن سبقه من الرجاز الذين استشهد بكثير من أراجيزهم في المعاجم اللغوية واعتد بأقوالهم.

وإن كان هناك تعليل آخر فهو لا يخرج بنا عن القول بأن أبا العلاء المعري ربما منعه من تجربته لقول الرجز تكليفه نفسه بما لا يجد له قبولاً من لدى شعراء عصره وأخذه في بناء قافية لزم فيها ما لم تلزمه به قواعد قوافي الشعر.

والرجز هو ضرب من الشعر. وإن كان أقل منزلة عند العرب في الجاهلية من القصيدة لكنه أخذ مكانة في ساحة الشعر واحتل مركزاً مرموقاً منه قبل أبي العلاء المعري بمئات السنين. كيف لا وأبو العلاء المعري قد مات في ربيع الأول من سنة ٤٤٩ هجرية بينما أنه حصل تراجز بين العجاج والعجلي في سوق المربد في القرن الأول من الهجرة.. وقد أشرت إلى كل من العجاج والعجلي في مواضيع تقدمت في الجزء السابع من هذا الكتاب.

وقد لا يخالفني الرأي بعض من أدرك تكلف أبي العلاء المعري إن قلت أنه قد حمل على شعر الرجز حملة لم تأت بالنتيجة التي كان يهدف إليها.

وحتى أجعل من قولي حقيقة ملموسة فلا بد أن آتي بشيء من نماذج حملة أبي العلاء المعري ضد شعر الرجز. فمن ذلك قوله:

لا تُمسينّ على من مات مُلتهفاً
فالناشئات إذا طال المدى عُجُزُ

قصّرتَ أن تدرك العلياء في شرف
إن القصائد لم يُلحق بها الرّجز

وقوله :ـ

يماطلُ جَدٌّ أخا حاجةٍ
له أجلٌ بالردى ناجزُ

ولم أرق في درجات الكريم
وهل يبلغُ الشاعِرَ الراجزُ

وقوله :

عجزتَ عن الكسب الذي يجلب الغنى
وما أنت عن كسب الدنايا بعاجز

ومن لم ينل في القول رتبة شاعر
تقنّع في نظم برتبة راجز

وقوله :

والطير مثل الأنس تعرف ربّها
وترى بها الشعراء والرجازا

فيهن مسهاب يعدّ وناطق
ترك المقال وآثر الإيجازا

وإذا كان أبو العلاء لم يعد الرجاز من الشعراء كما تقدم في البيت الذي قبل الأخير فإنه بطبيعة الحال لم يعدّ الرجز شعراً وهذه قمة حملته ضد الرجز والرجّاز.



جمال الصوت وعذوبته من وسائل العشق!!

يقف شعراء الغزل على كل جانب من الجوانب التي تثير في النفس غريزة الحب وتوقد في القلب نار العشق وتحرك بإبداعها جناح الهوى فيطير ببعض القراء من عشاق الغزل إلى مسافات ذات عمق عشقي يشبه في فاعلية جغرافيته مثلث برمودا الذي تسقط في دواماته البواخر والسفن.

وجوانب الغزل هذه. كثيراً ما تكون محصورة في الأوصاف الجسدية. كالكشح. والحشا والأرداف والرقبة. والأثداء. والعين. والشعر. والأنف. وصفاء الخد. وبياض الأسنان. والأطراف كالبنان والأقدام وما إلى ذلك من المحاسن الجسدية التي تلفت النظر وتوقع في النفس فتنةً وعشقاً وتلهفاً.

لكن الجانب الذي لم يطرقه إلّا القليل من الشعراء هو جمال الصوت وعذوبته. وحسن الحديث الذي يوصف برطوبة اللؤلؤ وبجنى النحل. وبروائح الرياض المزهرة وبالسحر الذي يقع على الآذان ويبهر العقول. ويأخذ بمجامع القلوب وبالمسك الذي لا يمل الأنف رائحته.

ومن الذين أوردوا نماذج من هذا الشعر الغزلي المتخصص في وصف الصوت الكاتب الشهير أبو حيان التوحيدي. حيث ضمن كتابه «الرسالة البغدادية» هذين البيتين ولم ينسبهما لشاعرهما:

وبتنا على رغم الحسود وبيننا
حديث كريح المسك شيب به خمر

حديث لو ان الميت نودي ببعضه
لعاد صحيحاً بعد ما ضمه القبر

أما مجنون ليلى فيرى أن ريقها لو يداوي به ميتاً مقبوراً لقام من قبره سليماً معافى.

مفلجة الأنياب لو أن ريقها
يداوى به الموتى لقاموا من القبر

أما حلاوة الحديث فقد قال عنه عمر بن الفارض:

حلو الحديث وإنها
لحلاوة شقت مرائر

أشكو وأشكر فعله
فاعجب لشاك منه شاكر

ويقول ابن مليك الحموي في هذا المعنى:

وبات يعاطيني كؤوس حديثه
فملت ولم أشرب عتيقاً ولا خمراً

ويصف ابن معتوق حديثها باللؤلؤ فيقول:

فغدت تشنّف مسمعيّ بلؤلؤ
لولاه ناظم عبرتي لم ينثر

حتى بدا كسر الصباح وأدبرت
قوم النجاشي عن عساكر قيصر



من أضاع رسالتك فهو لصداقتك أضيع

وإذا صرفنا النظر عن الرسائل العادية والمكاتبات التي لا تحمل إلّا أخباراً وقتية وسؤالات عن الحال وصحة العيال وما إلى ذلك مما تتضمنه رسائل ومكاتبات العامة.

وأدرنا النظر إلى الرسائل الخاصة التي تحمل بين طياتها أساليب أدبية وأنواعاً من الطرائف الإخوانية التي تستحق من المرسلة إليه الاعتناء بها والمحافظة عليها لتبقى شاهداً على أدب عصره. ومقياساً لثقافة أدباء زمانه.. ودليلاً على مدى الاهتمام بالثقافة وتبادل وجهات النظر الأدبية عبر الرسائل المحررة التي يحملها بريد العصر بين أهله ومثقفيه. وأدبائه.

ونحن إذا ما تصفحنا كتب التراث الأدبي وجدناها تغص بالكثير من الرسائل الأدبية المتبادلة بين الأدباء.

ولأهمية الرسائل الأدبية نجد أنه يحصل لوم وتأنيب في حالة عدم الرد عليها أو إضاعتها أو عدم الاهتمام بها. كيف لا وهذه الشاعرة عائشة عصمت بنت إسماعيل باشا تيمور تلوم ولدها على تضييع رسالة كانت قد بعثت بها إليه. وذلك بقولها:ـ

يا من أضاع رسالة أهديتها
ترك الرسالة مثل ترك المرسل

حفظ الأحبة للمحب رقاعه
وأضعت أنت رسالة المتوسل

وعلام تطلب ثانياً إرسالها
وتضيعها هدراً كأن لم ترسل

ما ثم لو رمت الإعادة نسخة
وسوى التي أتلفتها لم أنقل

قد قالها فكري محاضرة ولم
تسطر لديَّ وقستها بالمهمل

يا مفرداً نظمت له علياؤه
دور الثناء على الكمال الأفضل

لي شاغل بالسقم عن إرسال ما
تبغي وإرسالها إذا لم أشغل

لا بد للتنميق من عقل ومن
فكر ومن قلب عن الدنيا خلي

ويبقى هنا أن أشير إلى أن بعض أدباء عصرنا لا يلقون اهتماماً بالرسائل الأدبية التي تجري بينهم مستدلاً على ذلك بعدم وجود شيء فيما لهم من مؤلفات حديثه عدا بعض المماحكات الشعرية التي تضمنتها بعض الدواوين.



الغربة في الدنيا غربتان!!

ولا نجد من الناس عاقلاً إلّا ويحقق بمنطق إيماني صادق بأن الغربة في هذه الحياة هي غربة واحدة.. وإن أي واحد من البشر ما هو إلّا غريب في هذه الدنيا وإنه عما قليل سيرحل إلى دار المقام الأبدي.

والناس يقسمون الغربة الدنيوية إلى غربتين. وهو تقسيم يؤكده الواقع فإحداهما غربة يحققها النزوح البدني من البلد الذي ولد فيه الإنسان ونما وترعرع فوق أديمه. وقطع شوطاً من سُنّي حياته في ربوعه وتحت سمائه. وهذه الغربة تنقضي بمجرد العودة إليه لأنها غربة قضاها ببدنه وحطم بمجرد عودته عصا الترحال والأسفار.

أما الغربة الثانية أو القسم الثاني من الغربة فهو أن يؤول أمر بلاد الإنسان إلى مستعمر يصبح هو الآمر والناهي والمسيطر بلا منازع... يستنزف مصادره ومدخراته وينعم بخيراته. وصاحبه عن مصالحه في غربة قد فرضها المستعمر بأفاعيله حتى استحال غريباً فوق أرضه وبين أهله.. وهذه الغربة هي قاصمة الظهر. وهي التي تحدث في النفس البؤس والألم. وهي التي تجعل صاحبها يغبط الطير في حريته. وسكونه إلى وكره وغدوّه ورواحه بل ربما حسد الحيوان بعدم إحساسه.

وقد يختلس الشاعر ساعة من الزمن يكون الرقيب فيها غافلاً فيحصل منه التعبير عما يخالج نفسه من ألم الغربة الشبيه بغربة الشاعر السوداني محمد محمد علي المولود بالخرطوم سنة ١٩٢٢م والمتوفى سنة ١٩٧٠م والتي عبّر عنها بقصيدة له عنوانها ـ أصداء الليل ـ منها قوله:ـ

عشتُ في العزلة الكئيبة حتى
ضقت ذرعاً بحكمتي وصوابي

أحسد الطير إذ يموج على الأيـ
ك وتضحى جموعه في اصطخاب

كلما عادت الطيور إلى الوكـ
ـر تذكرت وحدتي واغترابي

وإذا زفها الصباح إلى الأفـ
ـق ومرّت صفوفها خلف بابي

عاقني عن لحاقها ثقل القـ
ـيد وشطت منازل الأحباب

آه من وطأة الحياة على الحسـ
ـس ووهاها إلى العهود العذاب

زفزفي يا رياح في غسق اللـ
ـيل ونوحي على الذرى والشعاب

إن في صوتك الحزين شكاة
أفصحت عن نوازعي ورغابي

فآه من غربة كهذه وبعداً لها.



من هو أبو حيان التوحيدي؟

وأبو حيان قد ترجم لنفسه بنفسه في كتابه «الرسالة البغدادية» حيث قال في بدايتها معرفاً بنفسه وذاكراً كناه: ـ قال الشيخ أبو المطهر محمد بن أحمد الأزدي وقال في موضع آخر: ـ كان هذا الرجل المجلّى. يعرف بأبي القاسم أحمد بن علي التميمي البغدادي شيخاً بلحية بيضاء تلمع في حمرة وجه يكاد يقطر منه الخمر الصرف. وله عينان كأنه ينظر بهما من زجاج أخضر تبصّان كأنهما تدوران على زئبق. عيّاراً نعّاراً زعّاقاً. شهقاً. بابليًّا أديباً عجيباً، رصافاً. قصّافاً. مداحاً. قداحاً. ظريفاً، سخيفاً، نبيهاً. سفيهاً. قريباً. بعيداً. وقوراً. حديداً. مصادقاً. مماذقاً. سامراً. مقامراً. إلخ الصفات الحميدة وأضدادها التي قال إنها جميعاً من صفاته ومن طبائعه.

وفي ترجمة له في مقدمة الرسالة المذكورة آنفاً. قيل عنه أنه هو أبو حيان علي بن أحمد بن محمد بن العباس التوحيدي. الأديب اللغوي الفيلسوف. قال عنه ياقوت الحموي:ـ

فيلسوف الأدباء. وأديب الفلاسفة. ومحقق الكلام. ومتكلم المحققين. وإمام البلغاء وفرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة. وفصاحة ومكنة ـ واسع الدراية والرواية.

أما ولادته فقد قيل إنها بين السنتين ٣٣٢ و٣٣٥هـ ويرجح أنه توفي سنة ٤١٤ وقد عبر الثمانين.

والدارس لكتابه «الرسالة البغدادية» يتبين أن أبا حيان التوحيدي كان مشغوفاً بثلب الناس وذكر معايبهم مما جعله مكروهاً لدى غالبية أهل عصره وربما كان ذلك سبباً في إغفال ذكره من قبل المؤرخين. ـ وقد قال

عنه ياقوت: إنه كان سخيف اللسان. قليل الرضا عند الإساءة والإحسان. الذم شأنه والثلب دكانه. وأنه كان مجبولاً على الغرام بثلب الكرام.

ـ قال محقق الرسالة المذكورة: وقد حاولت أن أحصي من شتمه أبو حيان من العلماء والفقهاء والعظماء والفضلاء ولما توسطت الإحصاء تبين لي أني كلفت نفسي شططاً... ـ وقد احتاط أبو حيان النفس من الرد عليه فراح يضرب مثلاً لنفسه عندما استكمل ذكر الصفات الحميدة وأضدادها التي تكاملت في شخصه فقال:

شيخ بنار جهنم
قبل الممات قد اصطلى

تلقاه شهماً فارهاً
عند الفسوق محصلا

متفقهاً متكلماً
متبصراً متأصلا

إما إماماً في الخسا
رة أو نبياً مرسلاً

وإذا لهجت بعذله
وسبيله أن يعذلا

وطمعت في أن يأنف الـ
شيخ السخيف ويخجلا

خاطبت شيخاً أبلها
مثل الحمار مغفّلا

يدعى إلى ترك الفسو
ق فيستعيذ من البلى

الرسالة البغدادية!!

والرسالة البغداية هي واحدة من مؤلفات أبي حيان التوحيدي. وهي الوحيدة التي حملت إلينا بين طياتها ترجمة وافية عنه حيث جاء فيها أن اسمه. علي بن أحمد بن محمد بن العباس التوحيدي. وقد أشرت إلى الاختلاف الذي وقع في اسمه في موضع تقدم في هذا الجزء تحت عنوان «من هو أبو حيان التوحيدي؟».

والترجمة التي حوتها الرسالة البغدادية لم تكن موجودة فيما له من مؤلفات ضخمة كـ«البصائر والذخائر».

وهي من مسماها رسالة مقصورة على جانب من أخبار أهل بغداد... - وقد قيل إنه كتبها بعد ما عاد من أصبهان التي أقام فيها ثلاث سنوات فما طاب له منها عيش ولا حمد فيها مقاماً.

أما متى كتب هذه الرسالة فقد أشار محققها الأستاذ عبود الشالجي إلى أنه ألفها في السنة التي بدأ فيها بالنسخ أي في سنة ٣٧١هـ.

والعجيب من أمر التوحيدي أنه كنى نفسه في هذه الرسالة بأكثر من كنية إذ كنَّى نفسه بأبي المطهر. وبالمجلى. وبأبي القاسم بالإضافة إلى الكنية المشهورة «أبو حيان».

وفي الرسالة البغدادية تلك ما يدلنا على أن أبا حيان كان شاعراً. لكن شعره الذي ضمنه كثيراً من الموضوعات التي حوتها الرسالة كان لا يخلو من الألفاظ الساقطة البذيئة السخيفة التي لا تليق به كعالم لغوي وقطب من أقطاب الأدب في عصره.

والحقيقة أن البحث عن السبب الذي جرّه إلى نظم ذلك الشعر

الساقط قد يصل بنا إلى القول بأنه إنما كان مجارياً لابن الحجاج واسمه: أبو عبد الله الحسين بن أحمد النيلي البغدادي المتوفى سنة ٣٩١هـ - في السخافة وسقط القول الذي شمل به حتى نفسه. لكنه ربما أراد به قطع خط الرجعة عليه من الذين أمعن في ثلبهم والسخرية بهم من العلماء والفقهاء والفضلاء. وذلك مثل قوله في وصف أحدهم بالثقل وإساءة المجالسة:

أيـــا شـــراً بـــلا خـيـــر
ويـــا شـــيـــنـــاً بـــلا زيـــن

ويـــا أبـــغـــض مـــن يـــمـــشـــي
عـــلـــى الأرض بـــرجـــلـــيـــن

ويـــا أنـــكـــر مـــن وجـــه
غـــريـــم واجـــب الـــديـــن

ويـــا أثـــقـــل مـــن رضـــوى
وثـــهـــلان بـــرطـــلـــيـــن

ويـــا أنـــتـــن مـــن ريـــح
كـــنـــيـــف بـــيـــن داريـــن

يـــأمـــلـــنـــي بـــحـــق إلـــلّـــه
تـــبـــصـــر طـــلـــعـــة الـــحـــيـــن

فـــعـــنـــدي لـــك أبـــزار
تـــزول الـــمـــاء فـــي الـــعـــيـــن

حـــســـام مـــن ســـيـــوف الـــرجـــ
ـل مـــضـــفـــور الـــشـــراكـــيـــن[1]

---

(١) يريد به النعل. والشراك سير العل على ظاهر القدم.

جلسة بلوتية!!

وجلسات البلوت أو مجالسه تسرق الوقت وترمي به في دروب الضياع. . أقول هذا عن دراية وخبرة وتجربة مررت بها وأقمت عليها سُنيّات.

والذي يعرف البلوت يوافقني على أن الحماس يشد لاعبيه شداً يستهلكون معه الوقت دون شعور بمروره وانقضاء ساعاته الطوال. - وربما توقع المتفرج على اللاعبين وقوع تجالد بينهم. وقد تأخذه الرأفة بهم فيعمد إلى إخفاء نعالهم خوفاً من أن تكون وسيلة للصفع والضرب. ويستيقن وقوع الاشتباك عندما يسمع أحدهم يتمثل بقول الشاعر:

وكـنـا إذا الـجـبـار صـعّـر خـدّه
ضـربـنـاه حـتـى تـسـتـقـيـم الأخـادع

ويزداد تأهباً وحماساً لفك النزاع والاشتباك الذي رأى بوادره قد أطلت من خلال رد الآخر بشاهد من الشعر يقول:

تـهـددنـا وكـل شـيء
بـأيـديـنـا و«يـسـراك» ضـائـع[1]

ثم يسود الصمت قليلاً فيهدأ روع ذلك المتفرج فيتنفس الصعداء وينشد قول النمر بن تولب:

فدعوا الضغائن لا تكن من شأنكم
إن الـضـغـائـن لـلـقـرابـة تُـقـذع

---

(١) السرا: هو أن يكون مع اللاعب ثلاث ورقات متسلسلة من نوع واحد يكشفهن عند الحركة الثانية من اللعب ويحصل منه على عددين.

ثم تنتهي اللعبة ويجمع كل فريق الورق الذي حاز عليه ويأخذ . . . ليعلم أهو كاسب أم خاسر؟ وكما يقولون ـ طرحة جمل ـ أي مساوي لمجموع الفريق الثاني ـ ثم يعلن أنه حصل على مجموع مساوي لنده لكنه يقسم أنه كان عنده بلوت وإنه أعلنه قبل انتهاء اللعب والبلوت «يمثل اثنين في العدد يضاف إلى المجموع ويحصل عليه إذا كان معه «الباشة والبنت» من نوع الحكم الذي حكم عليه فيكذبه الفريق الثاني وترتفع الأصوات ثم يأخذ كل منهم يكيل الأيمان بأنه صادق فيما يقول إلى أن يستسلم أحدهما لقول الآخر ثم يجري الحساب ويقيد ويأخذ الورقة من كان عليه الدور في خبصها ومداخلتها وفي هذا الأثناء يسود الصمت ويجدها المتفرج فرصة لينشد فيها قول الشاعر بلال بن جرير:

لا حلف يقطع خصم كل مخاصم
إلا كحلف عبيدة بن سميدع

يُمضي الغموسَ على الغموس لجاجة
عضّ الجموع على اللجام المقدعِ

نزِقُ اليمين إذا أردتَ يمينَه
بخدائع الشعراءِ غيرُ مخدّعِ

وإذا تسمّع حَلْفة أصغى لها
وإذا يخوف بالتُقى لم يسمع

يهتز حين تمرّ حُجّة خصمه
حذر الفضيحة كاهتزاز الأشجع

ثم يفرق الورق وفقاً لقانون لعبة البلوت. ذلك القانون الذي سوف أتحدث عنه إن وجدت مناسبة تدعو إليه في موضوع مستقل إن شاء الله. . . ـ ولقد سمعت إنه يحصل عداء بين اللاعبين بسببه وتنافر وقطيعة. وهذا والله منتهى الحمق. . وقت يضيع. وصداقة تقطع. فآه له من بلوت.

طرب الوليد بن يزيد لقصيدة نابغة بني شيبان فتمنى أنه الممدوح بها!!

والقصيدة حينما تكون جيدة البناء وقوية المعنى ومهذبة العبارة تتناقلها الرواة وتسير بها الركبان فتنتشر في كل مكان وتأتي على كل لسان.. وينال بها صاحبها شرف السمعة والشهادة له بالبيان. وتبقى له ذكرى على مدى الزمان. كيف لا. ونحن نحفظ قصائد وأبياتاً لشعراء تفصل بيننا وبينهم مئات السنين. وليس أدل على ذلك من المعلقات.

أما تعشق الوليد بن يزيد لقصيدة نابغة بني شيبان اسمه عبد الله بن المخارق بن سليم بن حضيرة بن قيس بن سنان بن حماد بن جارية بن عمر بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن وهب بن قصي بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار. وقد اتهمه أبو الفرج الأصبهاني بأنه نصراني لأنه كما يقول: يحلف بالإنجيل وبالرهبان وبكل ما يحلف به النصارى. وهو من الشعراء الذين امتدحوا عبد الملك بن مروان... أقول أما تعشق الوليد لقصيدة النابغة وتمنيه أنه هو الممدوح بها. فقد ذكر الأصبهاني عن رواة منهم أبو الأزهر محمد بن سلام الذي قال: غنى أبو كامل مولى الوليد بن يزيد يوماً بحضرة الوليد بن يزيد:

امدح الكأس ومن أعملها
واهج قوماً قتلونا بالعطش

فسأل عن قائل هذا الشعر. فقيل نابغة بني شيبان. فأمر بإحضاره فأحضر فاستنشده القصيدة فأنشده إياها وظن أن فيها مدحاً له. فإذا هو

يفتخر بقومه ويمدحهم. فقال له الوليد: لو سعد جدك لكانت مديحاً فينا لا في بني شيبان ولسنا نخليك على ذلك من حظ. ووصله وانصرف وأول هذه القصيدة قوله:

حل قلبي من سليمى نبله
إذ رمتني بسهام لم تطش

وفيها يمتدح قومه بني شيبان ويفتخر بهم. وذلك بقوله:ـ

وبنو شيبان حولي عصب
منهم غلب وليست بالقمش

وردوا المجد وكانوا أهله
فرووا والجود عاف لم ينش

وترى الجرد لدى أبياتهم
كرباب بين صلصال وجش

ليس في الألوان منها هجنة
واضح البلق ولا عيب البرش

فبها يحوون أموال العدى
ويصيدون عليها كل وحش

دميت أكفانهم من طعنهم
بالردينيات والخيل النجش

والقصيدة أطول من ذلك. بل هي في كتاب الأغاني ... خرج الأصبهاني تسعة وعشرين بيتاً.



عصام تصف للحارث بنت عوف وتطلق المثل:
ترك الخداع من كشف القناع!!

وقصة المثل الذي أطلقته عصام بقولها: ترك الخداع من كشف القناع - قد انطوت على مثل آخر هو قول الحرث ملك كنده: ما وراءك يا عصام - والمثلان قد احتواهما الجزء الثاني من «مجمع الأمثال» لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري المتوفى سنة ٥١٨ هجرية ورواية القصة المشتملة عليهما تتلخص في أنه بلغ الحرث بن عمرو ملك كندة جمال بنت عوف بن محلم الشيباني وكمالها وقوة عقلها فدعا امرأة من كندة يقال لها عصام ذات عقل ولسان وأدب وبيان. وقال لها اذهبي تعلمي لي علم ابنة عوف فمضت حتى انتهت إلى أمها. وهي أمامة بنت الحرث فأعلمتها ما قدمت له فأرسلت أمامة إلى ابنتها. وقالت: أي بنية هذه خالتك أتتك لتنظر إليك فلا تستري عنها شيئاً إن أرادت النظر من وجه أو خلق. وناطقيها إن استنطقتك.

فدخلت إليها فنظرت إلى ما لم ترقط مثله فخرجت من عندها وهي تقول: ترك الخداع من كشف القناع - فأرسلتها مثلاً. ثم انطلقت إلى الحرث فلما رآها مقبلة قال لها: ما وراءكِ يا عصام؟ - قالت: صرح المخض عن الزبد - رأيت جبهة كالمرآة المصقولة يزينها شعر حالك كأذناب الخيل إن أرسلته خلته السلاسل. وإن مشطته قلت عناقيد جلاها الوابل. وحاجبين كأنما خطا بقلم أو سوّدا بفحم تقوسا على مثل عين ظبية عبهرة بينهما أنف كحد السيف الصنيع حفّت به وجنتان كالأرجوان في بياض كالجمان شق فيه فم كالخاتم لذيذ المبتسم فيه

ثنايا غرذات أشر تقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان بعقل وافر وجواب حاضر تلتقى فيه شفتان حمراوان تحلبان ريقا كالشهد ذلك في رقبة بيضاء كالفضة ركبت في صدر كصدر تمثال دمية وعضدان من مجان يتصل بهما ذراعان ليس فيهما عظم يمس ولا عرق يجس. ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما لين عصبهما تعقد إن شئت منهما الأنامل نتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها تحت ذلك بطن طوى طي القباطي خلف ذلك ظهر فيه كالجدول ينتهي إلى خصر لولا رحمة الله لانبتر لها كفل يقعدها إذا نهضت وينهضها إذا قعدت كأنه دعص الرمل لبده سقوط الطل. يحمل ذلك قدمان كحذو اللسان فتبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما. فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوجها إيّاه... ـ ولهذه القصة بقية فيها وصايا عشر من أمها لا تدعو المناسبة ولا يتسع المجال لذكرها ـ وهي موجودة في مجمع الأمثال في الباب ١٤ من الجزء الثاني.

وفيما يتفق مع هذا الوصف من الشعر ما جاء في قصيدة ضمها الجزء الأول من كتاب «سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر» منها:

رشأ كحيل الطرف معسول اللمى

عذب المراشف باخل بعناقه

يفتر عن ثغر الثريا ثغره

وينوء بالجوزاء تحت نطاقه

كالغصن في حركاته والظبي في

لفتاته والبدر في إشراقه

فاق الملاح صباحةً وفصاحة

ورجاحة في العقل بين رفاقه

يسبي بجمرة ضده بيض الدمى
وبياض معصمه ورونق ساقه

حاز الجمال بأسره فمحبّه
في أسره لم يرض حلّ وثاقه

كملت محاسنه وتم كماله
وحوى السنا السّامي على إطلاقه

واستغرقت أعطافه حلل البها
فبدائع الإغراق في استغراقه



مسؤولية الشاعر!!

وحتى نكون خير خلف لخير سلف فلا بد لنا من النظر بحكمة فيما امتدحنا به أوائلنا لنستمسك به ونعض عليه بالنواجذ. ثم لنحذر من السلوك في الدرب الذي نالوا من السلوك فيه شيئاً من المذمة حتى لا يلحقنا ذم ممن يخلفنا من الأجيال.

وحول هذا المفهوم أدرك الشاعر محمد رضا الشبيبي بأن مسؤولية التنبيه إليه واقعة عليه وعلى أمثاله من الشعراء. فقال مخاطباً شعراء عصره:

فيا شعراءنا انتقلتْ إليكم
مراقبة العوائد والطباع

هذا البيت هو من قصيدة طويلة تبلغ ٢٦ بيتا وقد نظمها سنة ١٣٢٩هـ. وقيل أنها من أوائل شعره ومطلعها:

إذا استجليت بارقة اجتماع
أضاء بنورها مجرى اليراع

وفيها يقوم الشعر تمهيداً لتحديد مسؤوليته وقوة تأثيره.

فلولا أن بعض الشعر سحرٌ
لكان الشعر من سقط المتاع

وبعد هذا البيت بعدة أبيات يخاطب الشعراء ويلقى عليهم مسؤولية توجيه الأمة وكشف ما يدور حولها من مكائد وما يحيط بها من أفخاخ منصوبة لاصطيادها.. ويطالبهم بمواصلة ما كان معهوداً إليهم.

بكم كشف اللثام عن المعاني
لمسدول اللثام أو القناع

ثم يطالبهم بعدم الغفلة عن مواصلة حث الأمة على الأخذ بالخلق الحسن:ـ

ويوشك لو غفلتم أن ينادى
جميل الخُلق حَيّ على الزماع

وبعد ذلك يثني على الشعراء بما هم أهل له من رعاية:

رعى اللّه القريض وناظميه
وحقّ لهم رعاية كل راع

وما هذا الثناء إلّا لأن لهم ألسنة تنافح وتكافح دون أمتهم.

فإن لهم لألْسنة حداداً
أحق من الصوارم بالدفاع

وإن لهم لأفئدة شداداً
تسدُّ مَسَدّ سابغةِ ادّراع

والحقيقة أنه يقع على الشاعر جزء كبير من مسؤولية الأمن الفكري والسياسي والأدبي لأنه بذكائه وفطنته ومعرفته بالزوايا التي يمكن أن تؤتى أمته من خلالها يقرر بالإشارة اللفظية مراقبتها. والحذر مما يتسرب من خلالها.



صفة السعادة ومعرفة السعيد!!

والناس في هذه الحياة يعيشون بطبيعة الحال عيشة متفاوتة لا يحكمها معيار ولا يحددها مقياس لأن لكل من السعادة والبؤس نصيباً من الناس. . ـ والمغبون منهم من يعيش عيشة سعيدة.

ـ ولأنه يكون في بعض الأحيان لبس في تمييز السعيد من الناس فقد أخذ أصحاب التجارب في ذكر مبادئ السعادة والطرق المؤدية إليها.

ومن أولئك الذين أكثروا من وصف السعادة الشاعر محمد رضا الشبيبي الذي يقول من قصيدة له عنوانها «الفوز في الحياة» وكان قوله لها عام ١٣٥٣هـ.

والـفـوز فـي الـدنـيـا لـمـن
نـبـذ الـمـخـاوف واقـتـحـم

ولـمـن يـشـق طـريـقـه
مـلـحـوبـةً فـي الـمـزدحـم

أما مطلع تلك القصيدة التي تبلغ سبعة وعشرين بيتاً فقوله:

قـلـب يـحـز بـه الألـم
عـبـس الـزمـان أو ابـتـسـم

ولأن السعادة يكون لها أسباب يجب التماسها فإن الشاعر الشبيبي قد صال وجال بما يخالج نفسه من خواطر اجتماعية لها مساس بحياة عصره. بل إنه قد ألقى اللوم على أمته التي لم تجار الأمم في تقدمها

تجنباً للبؤس التي هي فيه وطمعاً في السعادة التي ينعم بها الآخرون. فقال:

يـــا أمـــة مـــن جـــهـــلـــهـــا
تـــأبـــى مـــجـــاراة الأمـــم

ويستحث أمته على تجديد ما هدمه الزمان من مجد كان:ـ

هـــدم الـــزمـــان فـــجـــدّدوا
مـــا رثّ وابـــنـــوا مـــا هـــدم

ويشير إلى أنه إن لم يكن هناك تجديد وعلم وعمل فإن الوهن والضعف سيبقى في جسم أمته. ثم لا تسمع الدنيا نداءه حينما ينادي:

ويـــل الـــضـــعـــيـــف نـــداؤه
فـــي مـــســـمـــع الـــدنـــيـــا صـــمـــم

ثم بعد ذلك يلجأ إلى وعظ أمته وحثها على ممارسة العمل الذي يكسب السعادة ويحذرهم من الخمول وأن يدعموا علمهم بالسيف.. وكأنما هو يقول العلم يحتاج إلى قوة ومهارة فاحذقوا فيهما جميعاً:

عـــظـــتـــي لـــكـــم إن تـــحـــذقـــوا
غـــيـــر الـــمـــواعـــظ والـــحـــكـــم

ونـــصـــيـــحـــتـــي أن تـــدعـــمـــوا
بـــالـــســـيـــف مـــا أوحـــى الـــقـــلـــم



لماذا سميت غزوة السويق بهذا الاسم!!

وأكثر الحروب والوقائع والغزوات تسمى بأسماء المواقع والميادين التي تدور رحاها عليها.. لكن منها ما يأخذ اسماً لسبب يقع أثناء التجهيز لها.. وغزوة السويق سميت بذلك لأن أبا سفيان خرج في عدة من قومه لغزو رسول الله ﷺ ثأراً لغزوة بدر ولم يصنع لقومه شيئاً فعيرته قريش بذلك وقالوا: إنما خرجتم لتشربوا السويق فسميت غزوة السويق.. ولعل أشد الروايات اختصاراً في ذكر خبرها هي ما ذكره أبو الفرج الأصبهاني عن عبيد الله بن كعب بن مالك، الذي قال: ـ كان أبو سفيان حين رجع إلى مكة ورجع قبل قريش من بدر نذر أن لا يمس ماء من جنابة ولا يشرب خمراً حتى يغزو محمداً ﷺ، فخرج في مائتي راكب من قريش ليبرَّ بيمينه فسلك النجدية حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له تبت من المدينة على بريد أو نحوه ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل فأتى حيي بن أخطب بيثرب فدق عليه بابه، فأبى أن يفتح له وخافه وانصرف إلى سلام بن مشكم وكان سيد بني النضير في زمانه ذلك وصاحب كنزهم فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه ونظر له خبر الناس، ثم خرج في عقب ليلته حتى جاء أصحابه فبعث رجالاً من قريش إلى المدينة فأتوا ناحية منها يقال لها العريض فحرقوا في أسوار من نخل لها وأتوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين فنذر بهما الناس فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان وأصحابه. وقد رأوا من مزاود القوم ما قد طرحوه في الحرث يتخففون منه للنجاة. فقال المسلمون حين رجع بهم رسول الله ﷺ

أتطمع أن تكون غزوة؟ قال عليه الصلاة والسلام: نعم.

وقد كان أبو سفيان قال وهو يجهز خارجاً من مكة إلى المدينة أبياتاً من شعر يحرّض فيها قريشاً. فقال:

كروا على يثرب وجمعهم
فإن ما جمعوا لكم نفل

إن يك يوم القليب كان لهم
فإن ما بعده لكم دول

آليت لا أقرب النساء ولا
يمس رأسي وجلدي الغسل

حتى تبيدوا قبائل الأوس وال
خزرج.. إن الفؤاد مشتعل

فأجابه كعب من مالك بقوله:ـ

يا لهف أم المسبحين على
جيش بن حرب بالحرة الفشل

أتطرحون الرجال من سنم الظهور
ترقى في قنة الجبل

جاؤوا بجمع لو قيس منزله
ما كان إلا كمعرس الدول

عار من النصر والثراء ومن
نجدة أهل البطحاء والأسل

أما متى كانت تلك الغزة. فقد ذكر الواقدي أنها كانت في ذي القعدة سنة اثنتين من الهجرة.

ومن الناس!!!

ومن الناس من إذا ركب عربة فخمة. بعد أن كان يركب حماراً أعرج أو أجرب أخذته الكبرياء وأصبح لا ينظر إلى الناس إلّا بمؤخرة عينه.

ومن الناس من إذا لبس ثوباً جديداً مفوفاً بعد أن كان يرتدي سملاً خلقاً رأى أنه قد بلغ بذلك الجديد الزعامة والرئاسة.

ومن الناس من إذا شبع وتوفرت له لقمة العيش الرغيد بعد أن كان يتضور جوعاً مدّ عنقه وتعالى على غيره كتعالي قارون على قومه بمقولته التي جاءت بهذا النص القرآني ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨] ـ وما كان شاكراً لما أنعم الله به عليه من كنز الأرض.

ومن الناس من إذا احتذى بحذاء جلدي فاخر بعد أن كان يمشي حافياً نعله جلد قدمه أخذ يسير بتبختر ومرح واستكبار في أسلوب حركي يغيظ به الحفاة الذين لا يجدون قيمة ما ينتعلون به ويستصغر به الناس.

ومن الناس من إذا سكن منزلاً مسلحاً ومرخماً وفسيحاً بعد أن كان يسكن في بيت طيني ضيق متداعية جدرانه. أخذ يطل من شرفاته العالية وبواباته الواسعة على المارة من حوله. وكأنما هو بلقيس في عرشها أو سليمان على كرسيّه أو كسرى في إيوانه لا يراهم إلّا في منزلة الخدم.

وحول هذه المظاهر الاستعلائية الممقوتة التي يجمع إليها بعض الناس عندما تتبدل حاله من تعاسة وشقاء إلى سعادة ورغد عيش كثر القول الماقت لها. وتعاورها الشعراء من جميع جوانبها. فهذا الشاعر السعودي عمر يوسف عبد ربه قد تناول بعضاً من جوانبها في قصيدة له قوامها إحد عشر بيتاً منها قوله بأسلوب ساخر:ـ

إذا وصلت إلى أعلى بلا تعب
أو «بالحداقة» حتى «بتّ» مليانا

وصرت تعرف للمليون قيمته
ورحت تركب تايوتا ونيسانا[1]

فخل ماضيك مرسوماً بمسطرة
أمام عينيك لا تنساه لوزانا

وبالخصوص إذا ما كنت في سفر
وكنت من قبل مركوناً بلا خانا

ولست تعرف من مخلوق خالقنا
إلا الدجاج وإلا الديك أحيانا

وكن دواماً بمن قد كنت تعرفهم
أيام كنت إذا ما شفت فيرانا

تجري إليهم وكل الجسم مرتعش
تخاف منها.. تظن الفأر ثعبانا

وتمشي للسوق كي تشتر لوازمكم
بعد الغروب عسى تلقاها مجانا

---

(١) التايوتا والنيسان: نوعان من أنواع السيارات اليابانية.

ناقة هشام وكيس عبد الملك
يتسابق عليهما شعراء النقائض!!

عن يعقوب بن السكيت قال: حدثني سلمة النميري قال: حضر جرير والفرزدق والأخطل عند هشام بن عبد الملك. فأحضر هشام ناقة له فقال متمثلاً:ـ

أنيخها ما بدا لي ثم أرحلها
...

ثم قال: أيكم أتم البيت كما أريد فهي له. فقال جرير:ـ

أنيخها ما بدا لي ثم أرحلها
كأنها نقنق يعدو بصحراء

فقال هشام: لم تصنع شيئاً. فقال الفرزدق:ـ

أنيخها ما بدا لي ثم أرحلها
كأنها كاسر بالدو فتخاء

فقال هشام: لم تغن شيئاً. فقال الأخطل:ـ

أنيخها ما بدا لي ثم أرحلها
يرخي المشافر واللحيين إرخاء

فقال: ركبها لا حملك الله.

وقريب من هذا المجلس ما ذكر ابن سلام من أن الفرزدق. وجرير. والأخطل اجتمعوا في مجلس عبد الملك بن مروان. فقال لهم

ليقل كل منكم بيتاً في مدح نفسه فأيكم غلب فله هذا الكيس وكان به خمسمائة دينار. فقال الفرزدق:

أنا القطران والشعراء جربى
وفي القطران للجربى شفاء

وقال الأخطل:ـ

فإن تك زق زاملة فإني
أنا الطاعون ليس له دواء

وقال جرير:ـ

أنا الموت الذي آت عليكم
فليس لهارب مني نجاء

فقال له: خذ الكيس فلعمري إن الموت أتي على كل شيء.

ومثل ما داوى الشاعر الفرزدق خصومه من الشعراء بالقطران كما تقدم في بيته فإن جريراً قد أتى على هذا المعنى وذكر القطران في قوله:ـ

داويت بالقطران عر جلودهم
حتى بَرَأْن وكن غير براء

قَرّنْتُهمْ فتقطعت أنفاسهم
ويبصبصون إذا رفعت حُدائي[(١)]

فللّه درها من قرائح صافية نقية ليس فيها عياء ولا عجمة ولا لكنة.

ويا لها من مجالس يعمرها حسن المماحكات الأدبية.

---

(١) أراد جرير أنه يسوقهم كل اثنتين في قرن ـ والقرن حبل شد به دارتين معاً ـ ويبصبصون: يظهرون تدللهم له.

المجيء مثل الذهاب في الكراهية!!

لقد أخذت التعليلات المتعلقة ببكاء الطفل حال خروجه إلى الدنيا مسارات فلسفية متنوعة ومتعددة. منها ما يقول إن بكاءه ترجمة لعدم رضائه على الدنيا.. ومنها ما يقول إنه نتيجة للوحشة التي وجدها في عالم لم يألفه.. ومنها ما يقول أنه لم ير الدنيا إلّا أطلالاً تجلب الحزن إلى النفس وتنذر بالرحيل.

ومنهم من يفسر بكاء المولود بوجه عام بأنه تعبير عن كراهيته للدنيا وللحياة لأن جلده لامس قسوة الطبيعة ولأنه ترامى إلى أذنه ضجيج الحياة فصرخ معبراً عن أسفه على خروجه من القرار المكين.

وفلسفة بكاء الطفل حين ولادته وقدومه إلى الدنيا وبكاء الناس عليه حين رحيله منها تصنع شيئاً من الاعتبار وتحقق نظرية نتيجتها أن الإنسان باكٍ ومبكي عليه. لكنه شتان بين البكائين من حيث فلسفة الحياة.

والذي يبكي على رحيله من الدنيا عندما يرى الموت نازلاً بساحته ربما وصف بضعف ولم يعد يدرك مفهوم الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤].

يقول الشاعر محمد رضا الشبيبي في مطلع قصيدة نظام عام ١٣٥١ وتضمنها ديوانه «ديوان الشبيبي».

جئتها كارهاً وأخرج منها
كارهاً فالمجيء مثل الذهاب

لكن الشبيبي قد حتم عليه إيمانه القوي بأن الدنيا ما هي إلّا دار اكتساب وعمل يجده مزبوراً له في الدار الآخرة:

هي دار الأعمال فاعمل لتلقى
بعد دار الأعمال دار الثواب

ثم يشير إلى أن هناك قدراً محتوماً لا مفر من ملاقاته.

أجل إن بلغتُهُ حقّ موتٌ
وكذا الحقُّ في بلوغ النصاب

وبما أن البداية والنهاية هي بواقعها على وصفه في مطلع القصيدة السالف فإنه لا يرغب في الإكبار والإطراء لأن هذا لا يغير من واقع قد جبل عليه.

أنا يا مُكبري ومُطري خلالي
عارف من أنا خبير بما بي

ويمضي في تصدير بعض أبيات قصيدته تلك مشيراً إلى معنى الآية الكريمة: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه: ٥٥].

أنا من لستُ دارياً بغُدُوّي
أو رواحي ماذا يكون اكتسابي

أنا في البحر قطرة أوَ يخفى
عنك ما شأن قطرةٍ في العباب

حُجبتْ طلعة الحقيقة عني
ليتها تُسْتشف خلف الحجاب

أنا من لست حين أسألُ نفسي
سرّ نفسي مُزوّداً بجواب

الأسقف يساوي ذنب حماره في جلب البركة لامرأة الأخطل

وتأخذ المبالغة في الولاء للأساقفة مكاناً في نفوس النصارى إلى درجة الاعتقاد بأن النفع والضر مقروناً بطاعتهم وأن البركة والخير في التمسح بهم والركوع والتذلل لهم. فكأنما هم يملكون الشر ويتصرفون في إرساله ومنعه. وأنهم يختزنون الخير فيمنحونه لمن يكون ولياً لهم ويحجزونه عمن يبتعد عنهم أو يناهضهم.

روى الأصبهاني في الأغاني عن إسحاق بن عبد الله بن الحرث بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب قال: قدمت الشام وأنا شاب مع أبي فكنت أطوف في كنائسها ومساجدها فدخلت كنيسة دمشق وإذا الأخطل فيها محبوس فجعلت أنظر إليه فسأل عني فأخبر بنسبي فقال: يا فتى. إنك لرجل شريف وإني أسألك حاجة. فقلت: حاجتك مقضية قال: إن القس حبسني ههنا فتكلمه ليخلي عني. فأتيت القس فانتسبت له فرحب وعظم قلت إن لي إليك حاجة. قال: ما حاجتك. قلت الأخطل تخلي عنه قال: أعيذك بالله من هذا. مثلك لا يتكلم فيه. فاسق يشتم أعراض الناس ويهجوهم. فلم أزل أطلب إليه حتى مضى معي متكئاً على عصاه فوقف عليه ورفع عصاه وقال: يا عدو الله. أتعود تشتم الناس وتهجوهم. وتقذف المحصنات. وهو يقول: لست بعائد ولا أفعل ويستجدي له قال: فقلت له: يا أبا مالك. الناس يهابونك والخليفة يكرمك. وقدرك في الناس قدرك وأنت تخضع لهذا هذا الخضوع وتستخذي له. قال: فجعل يقول لي. إنه الدين إنه الدين.

وروى الأصبهاني أيضاً عن الهيثم بن عدي قوله: كانت امرأة الأخطل حاملاً وكان متمسكاً بدينه فمر الأسقف يوماً فقال لها: الحقيه فتمسحي به فغدت فلم تلحق إلّا بذنب حماره فتمسحت به ورجعت. فقال لها: هو وذنب حماره سواء.

ولا غرو أن يعتقد الأخطل مثل هذا الاعتقاد لأنه لم يذق طعم الإيمان ولا حلاوة الإسلام. التي تعطي المسلم حريته وتصون كرامته وتجعله متحرراً من أي نوع من أنواع الاستعباد... ـ ولقد أوغل الأخطل في عمياه إيغالاً جعله يجرأ على الاستهزاء بعبادات المسلمين وشعائرهم بقول:

ولستُ بصائم رمضان طوعاً
ولست بآكل لحم الأضاحي

ولست بزائر عنساً بكوراً
إلى بطحاء مكة للنجاح

ولست بقائم كالعير يدعو
لدى الإصباح.. حي على الفلاح

ولكني سأشر بها شمولاً
وأسجد عند مبتلج الصباح

ولكن هذا المعادي للإسلام قد قيض الله الشاعر الفحل ـ جرير ـ الذي هاجاه مهاجاة ألقمته الحجر منها قوله:ـ

فأما النصارى العابدون صليبهم
فخابوا وأما المسلمون فأفلحوا

ألم يأتهم أن الأخيطل قد هوى
وطوّح في مهواه قوم تطوَّح

تدارك مسعاة الأخيطل لؤمه
وظهر كظهر القاسطية أفطح

لنا كل عام جزيةٌ تتقي بها
عليك وما تلقى من الذل أبرح



هجاء المدن!!

وإذا كان الهجاء أو معظمه من خصوصيات الشعراء أو هو منهم يكون أبلغ وأوجع فلأنهم يعرفون كيف يبرزون مثالب من يقع في ألسنتهم إبرازاً يتسرب إلى أسماع الناس بسرعة هائلة ويتم حفظه وتناقله بين الرواة. ثم بالتالي يفرض نفسه كفن من فنون الشعر ويأخذ مكاناً فسيحاً من صفحات أسفار الأدب ليصبح بطبيعته مادة تنويعية مشوقة.

وأكثر من يكون عرضة للهجاء.. البخلاء. واللؤماء. والسفلة. والجبناء من الناس وغير أولئك ممن تضعف نفسه عن المروءة ويصيبه خمول وفتور عن الرجولة.

ـ وإذا كان هناك أهداف للهجاء والهجائين غير الناس فإن البلدان هي التي تكون في متناول الشاعر الهجاء. وذلك من عدة أسباب. لعل أهمها: إن الشاعر حينما يصل إلى بلد من البلدان فيفاجئه فيه مرض حال وصله إليه. أو تنغلق في وجهه سبل كسب المعيشة فيه. أو أن يكون الشاعر تاجراً فيأتي إليه بتجارة فتكسد في سوقه ويمنى بالخسارة الفادحة.

ومن البلدان التي شملها هجاء بعض الشعراء بلدة «مُكّران»[1] تلك البلدة لم يرض عنها الشاعر أعشى همدان. الذي فيما يظهر أنه ذهب

---

(١) ومكران بلد في السند أو الهند. وذلك بدليل قوله من القصيدة التي تقدمت أبيات منها:

وقد قيل إنكم عابرو ... ن بحراً لها لم يكن يُعبر

إلى السند والهند من أرضهم ... هم الجن لكنهم أنكر

إليها غازياً على كره منه. فقال فيها قصيدة طويلة. منها قوله:ـ

وأنت تسير إلى ـ مُكّرَان
فقد شحط الورد والمصدر

ولم تك من حاجتي مكران
ولا الغزو فيها ولا المتجر

وخُبّرتُ عنها ولم آتها
فما زلت من ذكرها أُذعر

بأن الكثير بها جائع
وأن القليل بها مقتر

وإن لحى الناس من حرّها
تطول فتجلم أو تُصْفِر

ويزعُمُ من جاءها قبلنا
بأنّا سنُسهم أو نُنْحِر

أعوذ برب من المخزيات
فيما أُسرّ وما أجهر

وحُدّثت أنْ ما لنا رجعةٌ
سنين ومن بعدها أشهر



عبارات سجعية. وأبيات اجتماعية!!

أعجبني من حيث الموضوعية ما نشرته صفحة: - استراحة الأسبوع - من جريدة «الجزيرة» في عددها ٦٩٨٦ الخميس ١٤١٢/٥/٨هـ للكاتب عبد العزيز إبراهيم العيسى فقلت على نمطه ومعززاً لقوله. وناقلاً لنصه:-

ما علمنا أن كثيراً من العرسان. يغرقون في بحار من الأحزان. إلّا في هذا الزمان... الذي غليتْ فيه المهور. وأصبح متوسط الدخل - محقور.. لا يستطيع الزواج. لا من القبيحة ولا من المغناج... - إلّا بعدما قرأت قول عبد العزيز. فكان مني هذا التعزيز الذي لقوله يجيز. -.

أما نص كلامه المنشور. المنظوم منه والمنثور... الذي بدأه بالبسملة. وختمه بأبيات ليست بالمطولة. فقال قول كل بادئ حليم: - بسم الله الرحمن الرحيم. العزيز الحكيم. وعلى نبيه محمد أفضل الصلاة والتسليم... أخبرنا أحد الفتيان الشجعان. أنه توكل على الرحمن. وتقدم لطلب يد إحدى كريمات الأعيان. فنجح في الامتحان. وقام بعقد القران. فباركنا له ما كان. ودعونا له من الله بالتوفيق والغفران. وأن يهب له البنات والصبيان. إنه كريم منان. وأثناء حديثنا معه في الامتحان. لاحظنا أن وجهه بالهم ملآن. على غير عادة العرسان. في كل زمان ومكان. ولما سألناه عن سر هذه الأحزان. في مناسبة طاب الفرح فيها وزان. انتفخت منه الأوجان. واسترسل في الأشجان وقال:

قالوا زواجك مبروك فقلت لهم
يبارك اللّه في أعماركم زمنا

لو يعلمون بما لاقيت من جهد
كان العزاء لحالي عندهم حسنا

ولو علمت بأمر العرس ما طرفت
عيني إليه وكنت الكيس الفطنا

كلفت بالبذل من لبس إلى ذهب
وحفلة مع خراف طبخها ضمنا

بعد اجتيازي لحفلات وقرقعة
حسبت أني انتهيت. وما بدأت أنا

فقمتُ بالبحث عن عيش ليؤويني
فصار حظي مع الملاك مرتهنا

شروطهم مع غلاء فاحش كتبت
كأنها هدنة للحرب في أثنا

والسعر عند عقار القوم يرفعه
متى أرادك أن تخلي له السكنا

والحقيقة أننا نرغب في أن نرى ونقرأ ونسمع مثل هذا اللون من الأدب النقدي. فلعله وعساه يجد أذنا صاغية من المجتمع. فيحصل بسبب فهمه التكامل والتعاون الذي يقضي على كل ظاهرة لا تحقق مصلحة عامة لجميع أعضاء المجتمع.



صورة من صور التناقض

والذي يلقي نظرة عابرة على الحياة العامة يجدها مليئة بالمتناقضات الفكرية والعقلية والعقيدية والعملية. بل يجد التناقض شاملاً لجميع الاتجاهات الحركية والسياسية. وليس مقصوراً على الاختلاف الفكري الذي كثيراً ما يشمل الاتجاهات الثقافية التي تبرز في ميادينها الآراء المتضادة والمؤيدة والمعارضة مما يجعل المفاهيم تختلط أحياناً وتصل إلى درجة العنف في الفتك والنقض. أما التناقض في المفهوم الحركي فكثيراً ما يقع في البناء والهدم والربط والحل وكل ما يشمل الحياة العملية التي يقوم عليها الكيان العملي للإنسان من الناحية المعيشية كالغرس والحرث وما يتعرض له من تناقض في مفهوم استخدامه لبعض محصوله الغذائي.

والقصد من هذا الاستهلال هو التوصل إلى القول بأن أحدهم يغرس شجرة العنب كفاكهة يقتطف منها العناقيد وينعم بأكلها عند ينعها حامداً الله على ما وهبه مما لذ وطاب مما تنبت الأرض. وهذا الصنف هو صاحب اليد التي تبني ولا تهدم وتفتل ولا تنقض وتصلح ولا تخرب.

وإلى القول بأن أحدهم يغرس ويزرع من أجل أن يقطف الثمار ويحولها من طبيعتها التي أحلها الله وجعل فيها لذة ومنفعة إلى خمر وقهوة تفسد الخلق وتسلب العقل وتقود إلى الكبائر والشرور. وخبائث الأفعال.

ولقد انبرى لتصوير هذا النقيض المضر الهادم للدين والعقل

والشرف والرجولة.. الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر المتوفى سنة ١٣٧٧هـ فرسم واقع شجرة عنب غرست لتؤكل عناقيد طرية لذيذة مباحة حلالاً من الله فصيَّرها إنسان خمَّار إلى خمر يذهب العقل ويجلب الجنون. يقول الشيخ محمد حسين في ذلك:

من بديع الكون أيد غرست
دوحة في تربةٍ طاب ثراها

تتحسّى لبن المُزن إلى
أن تجلت كعروس في حُلاها

ترسل العنقود ما أشبهه
بالثريا وهي تُزهىٰ في دُجاها

يرشف البائس في القوم كما
يرشف المترف من شهْدِ لُمَاها

هل رعى الإنسان عهد اللّه في
دوحةٍ تطعمه حُلْو جناها

قلب العذب إلى مرٍّ وكم
قلب الخير إلى شرّ فتاها

حبس الخمرة حتى عَجَزَتْ
واستبان الغولُ فيها وتناهى

ملأ الإبريق والكأس وما
صبّ في أحشائه إلّا عَتَاها



هل من عذر في المساومة على المهر؟!!

تدور في المجالس العامة والخاصة أحاديث الزواج وما يكتنفه من عادات وتقاليد لم تكن مألوفة في الزمن السابق. وإنما جاء بها حب التقليد الذي أثقل كاهل الزوجين.

وإذا تركنا الحديث عما تقوم عليه ليلة الزفاف من خسائر مادية تشمل أفراد الأسرتين ـ أسرة العريس. وأسرة العروس ـ وتوقفنا عند القضية الأساسية التي ينعقد بها الاتفاق. وهي شرط الموافقة والقبول الذي يجب أن يكون ميسراً من قبل ولي أمر البنت في بداية الأمر... فإننا نسمع في تلك المجالس أحاديث عجيبة وغريبة تصدر عن بعض أولياء أمور البنات الذين لا يخافون الله فيمن ولاهم الله أمرهن فيساومون على مهور بناتهم وكأنهن عندهم سلعاً تجارية أو سوائم تباع وتشترى بعروض التجارة ومنقود الفضة والذهب.. ولولا التحقق من صحة وجود هذه الظاهرة وثبوت واقعها لما كان ذو الحلم والفكر والعقل يصدق بها.

وليس أقل من وصف هذه الظاهرة بالمأساة التي يجب البحث عن حل لها وأن يشتمل الحل على عقوبة تردع الظالم المستبد بمهر ابنته وتنزع من نفسه جذور الطمع الذي يمتد بيد اللؤم إلى ما ليس له حق فيه.

وانتشار هذه الظاهرة ـ وأعني بذلك ظاهرة غلاء المهور والمغالاة فيها ـ بين ضعفاء النفوس من أولياء أمور البنات قد حركت في الآونة الأخيرة أقلام بعض الكتاب والشعراء الذين أرادوا المساهمة في حل

هذه المشكلة... ـ ومما أعجبت به مما قرأته حول هذا الموضوع هي تلك القصيدة التي تضمنها ديوان «أزهار» للشاعر علي حسن الفيفي وعنوانها ـ فتاة اليوم ـ وقد جاء التعبير فيها على لسان فتاة تجنّى عليها أبوها بالمساومة على مهرها.. من تلك القصيدة قوله:ـ

فتاةُ اليوم قالت ضاق صدري
وفكري شارد والدمع يجري

أحسُّ بأنني قد عشت عمري
ببيت ضيق وأنا بقصر

وأشعر أن هذي الدار أضحت
تضيق كما يضيق اليوم صدري

ولي أهل وليس لهم قلوب
تحسُّ بما أحس به وتدري

إذا ما جاءهم كفء كريم
ليخطبني فهم يغلون مهري

يساومه أبي في المهر جهلا
وهذا الجهل بالآباء يزري

يطالبه بمهر ليس يدري
أيجمع بعضه في ألف شهر

فأخفيتُ امتعاضي في فؤادي
وكدت أموت من كبتٍ وقهر



في كل عصر حداثيون... ولكن...!!!

في كل عصر من العصور يطلق علماء أدبه على المبتدئين اسم الحداثيين. . . وهذا اسم موافق من حيث المعنى لعمر المتأدب. . . ـ وفي عصرنا هذا أخذ القول حول الحداثة والحداثيين شوطا لا بأس به. لكنه ارتبط بالبنيوية وما تقوم عليه من مفهوم فحصل تداخل شكل ما يشبه الوحدة الانعزالية التي رفعت علم الشعر الحر وقامت على الخروج عن مبدأ الأدباء الأصوليين وشعراء الشعر العمودي المقفى.

وحيث أن عصرنا يختلف بوسائل إعلامه عن العصور الماضية فقد حصل تصادم على صفحات الصحف السيارة التي تتجدد يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع وشهراً بعد آخر حول ذلك المفهوم. لكنه أخذ في الاتجاه نحو عمق ستتعثر فيه أقدام الحداثيين والبنيويين الذين يحاولون قطع صلة التراث الأدبي بأدبنا الحاضر. وكأنما هم مأجورون على التطاول على عمالقة الأدب الأصوليين الذين يؤكدون على ضرورة ربط الأدب المعاصر بالأدب التراثي القديم. . وأنه لا جديد لمن ليس له قديم.

لكن الذي يطيل عمر ذلك التطاول. ويجعل منه صوتاً يرتفع في بعض الأحيان هو مسلك بعض أسر تحرير بعض تلك الصحف والمجلات الذين يظهرون ميلهم إلى أي فئة تسعى جادة لقطع الصلة بالماضي. . . ـ وإذا ما سألنا عن سبب مناصرتهم لذلك نجد الجواب يكمن في ضحاله تحصيلهم الأدبي والثقافي لأن أكثرهم ما هو إلّا قارئ قصة مترجمه أو شعر حر. ـ أما سوى ذلك فيقصر فهمهم عنه إذ ليس لهم عمق في فهم التراث الأدبي والشعر العمودي الأصيل الذي يغضب ويشتكي حينما يسمي الحداثيون كلامهم النثري الملغز بالشعر الحر وقد

سمع شكواه الشاعر هادي أبو عامرية فبثها في أبيات ساخرة بلغت نحواً من ٣٣ بيتاً[1]. منها قوله:

حـيـن أتـانـي فـزعـاً
أمـواقـه ذرافـه

سـألـتـه مـا اسـمـه
ومـا الـذي أخـافـه

فـقـال شـعـر الـعـرب إن
جـهـلـتـم أوصـافـه

ويمضى الشعر في تضجره من سوء ما يعامل به. بل يحدد الذين آذوه بقوله:

مـن صـبـيـة تـثـقـفـوا
ثـقـافـة مـتـلافـه

تـتـبـعـوا مـآثـري
مـن زمـن الـخـلافـه

وهـم كـأعـمـى مـقـعـد
يـمـتـهـن الـقـيـافـه

ويهم الشعر بتأديب أولئك الذين يحاولون التطاول عليه. فلا يجد وسيلة لتأديبهم إلّا العصا:

فـقـلـت يـا قـوم الـعـصـا
لـصـبـيـة الـصـحـافـه

الـهـاذريـن الـواسـمـيـ
ـن الـهـذر بـالـطـرافـه

(١) الأبيات نشرتها جريدة الندوة في عددها ١٠٠١٢ الأحد ٢ جمادى الأولى سنة ١٤١٢هـ.

مزايا العافي.. ولذة العفو!!

وإذا كان العفو بطبيعته وطبعه وجميع مزاياه الحميدة غير موقوف على وجه من وجوه التعامل الجاري بين الناس فإنه يأخذ من دروب الحياة مساراً يتصف في كل مناسبة بصفة معينة يوائم المناسبة التي يبرز في ميدانها عندما تكون الرؤية غير واضحة في جانب من جوانبها.

وللعفو لذة ذات طعم يختلف من فم إلى آخر وذلك بحسب كبر حجم ونوع المشكلة التي تقع من أحد الأطراف على الطرف الآخر.. لأنه وأعني بذلك العفو - ينهي ثأراً ويحقن دماً. ويوقف عتاباً. ويطفئ ناراً. ويجلب صفاء. ويحدث تآخياً.

ويكفي مزية العفو فخراً بين المزايا الممدوحة أنه إحدى وسائل نيل الأجر من الله قال تعالى في سورة الشورى آية ٤٠ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾.

ولهذا فإنه ما عض أصبع الندم عاف عفا عن حق له وإنما يجد الراحة النفسية والثناء الوافر ممن عفا عنه.

ولو تدرجنا مع مفهوم العفو في مجالات الحياة لوجدنا له فاعلية في جميع العلاقات الاجتماعية... فاستبدال غيره به في مجال الخلاف وارتكاب الأخطاء وتأدب النشء مثلاً يعطي نتائج محمودة ويضمن علاقات طيبة.. وهو أداة مؤثرة متى ما أحسن استخدامها أحد الصديقين أو الزوجين أو المتحابين عند تعاتبهما أو تخاصمهما.

وتصف الشاعرة أمل العلي. العفو بأنه عبارة عن يد حنونة تطوي بكل رفق صفحة مشوهة بكثرة الأخطاء وتقلب صفحة جديدة في دفتر

العلاقات الاجتماعية: تقول في أبيات نشرتها لها مجلة اليمامة في عددها ١١١٦ الأربعاء ٩ ربيع الآخر عام ١٤١٢هـ:ـ

لستَ مأموناً على حفظ الهوى
بعد أن خنت عهودي مرتين

مرة كذبتُ ظني عندما
كان ظني ويقيني بين... بين

وأنا الآن يقين ساطع
رغم أني لم أرد عينا بعين

إن لقيا في خداع ظالم
عند شرع الحب خير منه بين

ليس من في عشقه جم الغنى
مثل من في عشقه صفر اليدين

بيد أني لم يزل في خافقي
من هوى الأمس بقايا خفقتين

فإذا عاهدتني ثالثة
فتذكر من خصالي خصلتين

لذة العفو وترويض الجوى
فاقلب الصفحة واطوِ الصفحتين



الحيرة وقسر النفس!!

وفي بعض الأحيان يأخذ الإنسان نفسه في رحلة إلى أعماق المستقبل طمعاً منه في أن تضع تصورات لما سيأتي به الغد حتى لا تفاجأ بأي جديد من نوعه.

ـ لكنه عندما يسلك بها نحو بعض الاتجاهات التي لا تميل إليها أو لا ترغبها إطلاقاً فإنها لا تتوانى في استيقافه. ثم استنطاقه عن أسباب الخوض بها في بعض مجاهل الحياة.. بل ربما واجهته بأسئلة لا يستطيع الإجابة عليها.

والمرء الذي يضرب بنفسه وأفكاره في فلسفة المجهول يقف أمام نقطة اسمها ـ الحيرة ـ فإن اضطرته الظروف أو حمله الفكر المنهك على الدخول في محيطها فإنه سوف لا يخرج منها إلّا وهو يحمل عبئاً لا تستطيع النفس التي أرهقتها الرحلات في أعماق المجهول أن تتعامل معه في وئام وصفاء.. وإن هو قسرها فسوف يكون قسرها سبباً يفتح بينه وبينها باباً من اللوم والتّذمر الذي يحيل الحلم إلى طين وحمق يهدم كل علاقة تربطه بالآخرين.

ومن هنا نستطيع القول بأن الإنسان إذا لم يصدق مع نفسه في كل أمر فإنه وبلا شك سيدخل معها في صراع يؤثر على حياته الفكرية والصحية.

يقول صاحب ديوان «ملتقى العبرات» الشاعر محمد طاهر الجبلاوي من قصيدة له تبلغ نحواً من ثلاثين بيتاً يذكر فيها الحيرة وموقف النفس ومنهجه وخط سيره وقد استهلها بقوله:

أرسل الطرف في السماء صعوداً
ليت شعري وما الذي في السماء

هل وراء الآفاق راحة نفس
أبتغيها أو منفذ من عناء

تتعالى العيون فيها وتسمو
ثم تدنو باليأس والإعياء

وإذا بي مقلباً بعد كفي
وهمّي موفر وشقائي

ومنها قوله -

أبصر اليأس والردى دون عيني
وأرى الهمّ والأسى من ورائي

ليس لي مرشد ولا لي معين
غير نفسي وأنفسٍ عمياء

ومنها قوله:-

كم غبي يجني عليه غباء
وذكي محير بالذكاء

غفلتي في الحياة موتي فيها
وانتباهي بها من الأرزاء



التخريق بالنار والتنقيط بالدم!!

وتأخذ الرسائل الغرامية بين المتراسلين من العشاق طابعاً يخرج بها.. بل تتميز به على سائر الرسائل التي تتضمن أحر التعبير عن الشوق. وتحتوي أرق ألفاظ التوله وأبلغ عبارات الحب.

وكتب الأدب قد حفظت لنا بين طياتها نماذج من الرسائل الغرامية التي تشتمل على فنون من أدب المراسلة.. ونحن نلحظ من خلال قراءتنا لها أن التراسل إذا كان جارياً بين محبوب ومحبوبة بأسلوب متسربل بالأدب وغير عار أو مبتذل فإنه يكون رافداً يصب في محيط الأدب ويزيد من ثروته وتنوعه ويودع فيه حرارة يتعشقها كثير من القراء.

والذي يُنَقّب عن مثل تلك الرسائل يجد أن بعضها يتميز عن الآخر بإضافة رموز هي أقوى من التعبير اللفظي الملتهب بنار الشوق.. وهذه عادة ما تكون متبادلة بين المتعاشقين اللذين بلغ بهما الشوق إلى اللقيا درجة لا تستطيع الكلمات الإفصاح عنها فتسكت لغة الألفاظ والكلام وتنطق لغة الإشارة والرموز التي منها ما يتمثل في تخريق أسفل الرسالة بعود ثقاب أو نحوه تعبيراً عن مدى معاناة القلب من حر الشوق. ومنها ما ينقط أسفله بنقط من الدم تعبيراً أو إشارة إلى عمق الجرح الذي سببه البعد الداعي إلى تحرير الرسالة.

ـ ولقد رأيت أكثر من رسالة محرقة... أما المنقطة بالدم فما رأيت من ذلك شيئاً. ولكنني سمعت بها وقرأت عنها نثراً وشعراً. وأُورد هنا شيئاً من الشعر الذي قرأته حول تنقيط الرسالة بالدم. للتدليل على صحة استعمال نقط الدم في الرسائل للأسباب التي أشرت إليها

آنفاً. ففي ديوان الشارع أحمد زكي أبي شادي «الشفق الباكي» قصيدة عنوانها «نقطة دم» أقتطف منها قوله:ـ

رحماكِ كيف أرقتِ قُدسيَّ الدمِ
رُوحي أرقتِ به وإن لم تعلمي

أرسلتهِ متورداً في نقطة
فوق الكتاب شفيع قلبٍ مغرم

إلِي الشفاعةُ يا حياتي؟ مَنْ ترى
يرى تذلّلَ مالكي ومتيمي

عذّبتني لكن جعلت تعذُّبي
حُلْواً فكم أسعدتِ من لثمي فمي

ومنها قوله:ـ

يا نقطة القلب الحبيب بما وعتْ
أهلا بمقدمك الحبيب المكرم

حُمّلتِ آلاف الكرات جميلة
فكأنها قُبَلٌ سترن لمغنم(١)

وكأن عيني مجهر نظرات بها
ما غاب عن نظر الخليّ أو العمي

أتأمل الساعات فيها لا أني(٢)
وأحس فيها الشعر لاح لملهم



(١) يشير إلى كرات الدم التي لا ترى إلا بالمجهر.

(٢) لا أنى: لا أتعب.

هل في الطلاق راحة؟!!

إن كثرة المشكلات الاجتماعية وما تسببه من انفصالات زوجية تلقي بظلالها الأسود على الأسرة التي لم يدرج بعض أفرادها من عشها لهو ظاهرة تفرض سؤالاً يقول: هل في الطلاق راحة. أم أنه يعقبه شقاء وهم وعناء؟.. والإجابة على هذا السؤال تطول وتطول وتتفرع تفرعاً يشمل عدة نواح اجتماعية.. ولأن الطلاق يترك جرحاً عميقاً في النفس ويبتر حبل الصلة الزوجية. صار أبغض الحلال إلى الله.

أما الإجابة على السؤال الذي فرض نفسه فقد يتلخص في القول بأن الطلاق إذا وقع وكل من الزوجين قد رغب فيه وحبذه ورأى أنه الحل الأمثل. والأمر الذي لا بد منه لحل ما استحكم بينهما من مشكلات فهو بطبيعة الحال راحة للنفس. وفي القرآن الكريم آية ٢٣٢ من سورة البقرة: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

أما إذا كانت الرغبة فيه من جانب واحدٍ فهو الشقاء والمشقة بعينه وربما كان تأثيره أشد ألماً وأوجع وقعاً إذا وقع على الطرف الذي لا يملك العصمة مفاجأةً.. والعكس من ذلك على من بيده العصمة إذا حمل عليه وأجبر بالتفوه به لأسباب يبررها من لا يملك العصمة ويحققها من له الحكم في الأمر.

ولقد حاولت البحث عمن يكون السبب في وقوع الطلاق.. أهو الرجل أم المرأة؟!! فساورتني حيرة في تحديد ذلك... لأنني إن قلت

أن السبب في ذلك هو الرجل فقد ظلمته. وإن قلت المرأة. قالت لي إحدى بنات حوا لا بدّ أن تقول ذلك لأنك رجل وتحاول تزكية الرجال. ولكن المستقرئ لحوادث الطلاق يستطيع بنفسه أن يخرج بنتيجة تحقق أن المرأة هي صاحبة الرقم القياسي في الندامة على الطلاق...

- وامرأة[1] مثل تلك التي قال عنها أحد شعراء الأحساء الشيخ عبد الله بن محمد الرومي:

عساها تستريح واستريح
إذا ما ضمها ذاك الضريح

فقد آنست منها الجور باد
وآنست الجفا فيها يلوح

وتلقاني بسوء الخلق دوماً
وبالعصيان لي دوماً تبوح

وكان عنادها لي مستمراً
فليست تستريح ولا تريح

وفي القرآن زجر عن هواها
ونهي بالغ عنها صريح

ولكن لا أطيق الصبر عنها
فهل صبر يباع فاستريح

عسى من نفحة الرحمن فضلاً
تهب لنا من الألطاف ريح

فتعصف بالتي نشكو أذاها
وتلطف بالضعيف فيستريح

(١) جديرة بالطلاق والفراق

يزيد بن معاوية
يطلق لسان الأخطل اللعين في الأنصار!!

وما من شاعر معادٍ للإسلام والمسلمين إلّا وتجده باحثاً في وسطهم عن مأمن يلجأ إليه حينما يركب طبعه الخبيث ويجنح إلى إساءة الأدب.. فمنذ عهد الشاعر الأخطل ويزيد بن معاوية إلى يومنا هذا وأعداء الإسلام من الشعراء وغيرهم يبحثون عن منطلق يضمن لهم السلامة حينما يطلقون ألسنتهم ويبثّون حقدهم وكراهيتهم للإسلام وأهله في أشعار وخطب تلقى في المنتديات.

- ولا أريد هنا أن أذكر أسماء تندس في صفوفنا بلسانها العربي متخذة من اللغة العربية مسلكاً تتسلل من خلاله إلى النيل من الإسلام وأهله.

أما حكاية الأخطل اللعين. واسمه غياث بن غوث. وهجائه للأنصار فهي حكاية بطلها يزيد بن معاوية الذي جعل من نفسه سنداً للأخطل فراح اللعين يطلق لسانه البذيء الذي يتحسس به الشهرة بأي أسلوب يصوغه.. فوجد أن هجاء أكابر المسلمين من الأنصار رضي الله عنهم هو الوسيلة التي ينال بها الشهرة فاختار الأنصار في قصائد له لعنه الله وأبعده من رحمته حيث قال يهجو النعمان بن بشير الأنصاري ويذكر عبد الرحمن بن حسان بن ثابت.

هجوتُ ابن الفُريعة إذ هجاني

فما بالي وبال بني بشير

أُفيْحجُ من بني النجار يُضحي
شديد القُصْرَيَيْن من السحور

ويقول في أبيات أخرى:ـ

لعن الإله من اليهود عصابة
بالجزع بين جُليجل وصرارِ

قوم إذا هدر العصير رأيتهم
حُمراً عيونهم من المسطار

ذهبت قريش بالمكارم والعلى
واللؤم تحت عمائم الأنصار

فذروا المكارم لستُمُ من أهلها
وخذوا مساحِيَكمْ بني النجار

إن الفوارس يعرفون ظهوركم
أولاد كلّ مُفَسّحٍ أكّار

وإذا نسبت ابن الفريعة خلته
كالجحش بين حمارةٍ وحمارِ

أما دور يزيد بن معاوية في مساندة هذه الجرأة الأخطلية النصرانية على المسلمين فإنه لما شاع هذا الشعر النابع عن البغض للإسلام وأهله ووصل إلى أوساط الأنصار ثارت ثائرتهم فتوجه زعيمهم النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه إلى معاوية بن أبي سفيان غاضباً... فلما قدم معاوية أبلغه الخبر وطلب تأديب ذلك الغلام النصراني. وأنه لا يرضى إلّا بقطع لسانه. وقد وجد من معاوية أذناً صاغيةً فهم بالأخطل. لكن يزيد تدخل في الأمر. وأخذ يترضى أباه حتى رضي.. فتباً لها من وساطة أرضت نصرانياً وأهانت مسلماً.

لماذا يكون مكان الموضوعات الأدبية والقصائد في الصفحات الأخيرة!!

ومن خلال متابعتي لقراءة بعض الصحف والمجلات. ألاحظ على بعضها. بل على أكثرها وخاصة منها الصحف الجامعة للأدب والثقافة. والتاريخ والعلوم والسياسة والفن والفلسفة. أنها تعمد في تصنيف موادها وترتيب مواضيع كل عدد يصدر منها إلى جعل المواد الأدبية والقصائد الشعرية على الصفحات الأخيرة منها.

ـ والحقيقة أنني لا أعرف سراً لذلك. ولا سبباً مقنعاً يعزا إليه هذا التصرف الذي ربما استشف منه عدم الاهتمام بتلك المواد إلّا أن يكون تقليداً لصحف كانت لا تلقى للآداب اهتماماً بقدر ما تهتم بالسياسة والرياضة والفنون الأخرى.

وحينما أبدي هذه الملاحظة على سياسة تبويب تلك الصحف التي تجعل الأشعار والآداب على صفحاتها الأخيرة فأنا لا أطالبها بأن تقدم المواد الأدبية على غيرها بشكل عام.. ولكن أرى أن تكون صفحة.. وصفحة.. حتى لا يكون لأهل الآداب والشعراء تذمر ولا لأهل الفنون الأخرى معارضة. وليكون هناك توازن في تحقيق رغبات القراء وتقديراً لمكانة كل مادة.

وحتى لا أكون معمماً في ملاحظتي هذه فإنه لا بدّ من أن استثني مما كنت أقرؤه من صحفنا المحلية ما كان منها.. بل من أسر تحريرها منصفاً وغير متحيز فـ«المجلة العربية» التي يرأس تحريرها الأديب حمد القاضي هي من المجلات التي أنصفت الأدب والشعر ولم تجعله بصفة

مستمرة في صفحاتها الأخيرة.. كيف لا وهذا العدد ١٦٦ لشهر ذي القعدة عام ١٤١١هـ يطالعنا وعلى الصفحة ١١ منه قصيدة للشاعر السعودي إبراهيم عبد الله مفتاح بينما عدد صفحات هذا العدد ١٢٨ صفحة وحيث قد أوفيت هذه الملاحظة حقها فإنه يحسن بي نقل القصيدة التي أشرت إليها.

وعنوانها «خفقة على رمش الوطن».

على شرفتي للهوى موعد
وفي ناظري للأماني غدُ

وفي داخلي يزدهي موطن
لعشقي على أرضه مولدُ

يكحل فجر الهدى مقلتيه
وللشمس في جفنه مرود

ومن مهجة الصبح في كل يو
م على رأسه راية تعقد

ألا أيها الوطن المنتمي
لصافنة في السُّرى تُولد

حوافرها فوق خد الثرى
عناق لفارسه يصعد

يقبل في وجنتيه الضحى
ويحضنه في الذرا ساعدُ

تباركت يا موطني سيداً
على راحتيك المنى توقدُ



هل مات امرؤ القيس مسموماً؟...

أشرتُ في موضوع تقدم في الجزء السابع إلى أنني سأتحدث عن سبب موت امرئ القيس وها أنذا أقول: أن الشائع لدى كثير ممن ذكروا امرأ القيس أنه مات مسموماً. وذلك بقولهم: إنه لما لم يتم له استرجاع ملك أبيه ذهب إلى ملك الروم «القيصر جوستينيانس» وفي طريقه مرّ بالسموأل وأقام عنده ما شاء الله واستودعه ابنته وأدرعه وماله وطلب إليه أن يكتب إلى الحارث بن شمر الغساني بالشام ليوصله إلى القسطنطينية ففعل السموأل ذلك وانطلق امرؤ القيس بالكتاب. وفعلا مكنّه الغساني من الوصول إلى القسطنطينية وهناك تقبله قيصر ووعده بالنجدة... وقيل أنه قلده إمرة فلسطين.. وحول إقامته لدى قيصر دارت حكايات متعددة منها أنه وشى به إلى قيصر رجل يقال له الطماح بن قيس الأسدي كان امرؤ القيس قتل أخاه فنقل خبراً لقيصر بأن امرأ القيس كان يراسل ابنة قيصر ويواصلها لكن هذه الوشاية لم تصل إلى قيصر إلا بعد أن رحل امرؤ القيس من عنده فبعث إليه حينئذٍ بحلة وشي مسمومة منسوجة بالذهب وكتب إليه مع رسول: إني أرسلت إليك بحلتي التي كنت ألبسها تكرمة لك فإذا وصلت إليك فالبسها باليُمْنِ والبركة واكتب بخبرك من منزل منزل.. فوصل إليه الرسول دون أنقرة ـ فلبس الحلة واشتدّ سروره بها وكان يوماً صائفاً فأسرع فيه السمُ وتناثر لحمه وتساقط جلده وتفطر جسده فلذلك سمي: ذا القروح.. لكن هناك قول مغاير لهذا مفاده أن موت امرئ القيس كان بسبب جدري اصابه وهو بأنقرة بتركيا وهو في طريق عودته من قيصر.. كما أن الذين ينفون أن قيصراً بعث إليه بحلة

مسمومة يذكرون أنهم وجدوا في كتاب قديم مخطوط أن ملك القسطنينية لما بلغه وفاة امرئ القيس أمر بأن ينحت له تمثال وأن ينصب على ضريحه ففعلوا. وظل التمثال قائماً هناك إلى أيام المأمون. وقد شاهده عند مروره هناك لما دخل بلاد الروم ليغزو الصائفة.. ـ قال الأستاذ حسن السندوبي مؤلف ديوان امرئ القيس: ـ وقد رأيت في معجم المطبوعات لسركيس أن أحد أصدقائه ممن أقام زمناً طويلاً بأنقرة للتجارة أخبره أنه رأى بقية هذا التمثال لا تزال قائمة بأنقرة قرب دار ـ السراي وهذه البقية عبارة عن الهامة فقط ـ وكان ذلك عام ١٨٩٥م.

ـ والطريف في فصل أو حكاية موته أنه رأى بعد ماأصابه مرض الموت قبراً دفنت فيه امرأة من أبناء الملوك. وهو في سفح جبل يقال له عسيب. فقال:

أجارتنا إن المزار قريب
وإني مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان هٰهنا
وكل غريب للغريب نسيب

فإن تصلينا فالقرابة بيننا
وإن تصرمينا فالقريب غريب

أجارتنا ما فات ليس يؤوب
وما هو آت في الزمان قريب

وليس غريباً من تناءت دياره
ولكنّ من وارى التراب غريب

وذكر أن السيوطي قال: رأيت في كتاب مقاتل الفرسان لأبي عبيدة أن صخر بن عمر وأخا الخنساء لما أدركه الموت. قال:

أجارتنا إن الخطوب تنوب
علينا وكل المخطئين مصيب

أجارتنا لست الغداة بظاعن
وأني مقيم ما أقام عسيب

وصخر لم يمت بأنقرة التي بها جبل عسيب وإنما هو فيما يظهر تمثل بقول امرئ القيس ليس إلّا. ولامرئ القيس بيت قال عنه ثعلب: هو أعجز بيت قالته العرب. وهو:

ما ينكر الناس منا حين نملكهم
كانوا عبيداً وكنا نحن أربابا



اليوم خمر وغداً أمر!!

ذكرت في موضوع تقدم في الجزء السابع تحت عنوان «امرؤ القيس.. لقب وليس اسماً له» شيئاً من أخبار امرئ القيس التي أهمها التعريف بأن اسمه ـ جندح ـ وليس امرأ القيس وإن امرأ القيس لقب لقب به وبه اشتهر فلا يكاد يعرف إلّا به. وقد ذكرت معنى ـ جندح ـ في الموضوع السالف الذكر.

أما في هذا الموضوع. فلا أدري أي خبر أنقله من أخباره الطريفة التي تزخر بها حياته.

ولعل تلقيه نبأ مقتل أبيه وما كان له من رد فعل في نفسه هو الذي سيحظى بالاختيار لهذا الموضوع.

وإذا ما عرفنا أن امرأ القيس كان منهمكاً في شرب الخمر منغمساً في اللهو واللعب ومغازلة النساء والتشرد فإن ذلك لم يثن عزمه عن الأخذ بثأر أبيه.

فقد روى أنه لما تلقى نبأ مقتل أبيه وهو يشرب الخمر ويلعب بالنرد قال عبارته المشهورة التي خلدها التاريخ وصارت مثلاً. وهي قوله لمخبره بقتل أبيه: ـ ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً.. لا صحو اليوم ولا سكر غداً. اليوم خمر وغداً أمر.. ثم أخذ يعدّ العدة لأخذ ثأر أبيه من بني أسد الذين قتلوه.. والغريب في أمره أنه أقسم على نفسه أن لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً. ولا يدهن بدهن. ولا يصيب امرأة ولا يغسل رأسه حتى يقتل من بني أسد مائة ويجز نواصي مائة بثأر أبيه. ثم قال:

خليليّ لا في اليوم مصحى لشارب
ولا في غد إذ ذاك ما كان يشرب

فلما ظفر ببني أسد وهم الذين قتلوا أباه. وقيل أن الذي قتله منهم هو رجل يقال له ـ علباء بن الحارث الكهلي وأدرك ثأره منهم حلّ ما حرم على نفسه.. وله من قصيدة مطلعها:

أرانا موضعين لأمر غيب
ونُسْحَرُ بالطعام وبالشراب

وفيهايذكر أباه حجراً وجده الحارث بن عمرو.

وكل مكارم الأخلاق صارت
إليه همّتي وبه اكتسابي

وقد طوّفتُ في الآفاق حتى
رضيت من الغنيمة بالإياب

أبعد الحارث الملك بن عمرو
وبعد الخير حُجر ذي القباب

أرجي من حروف الدهر ليناً
ولم تغفُلْ عن الصم الهضاب

وأعلم أنني عما قليل
سأنشب في شبا ظفرٍ وناب

كما لاقى أبي حجر وجدّي
ولا أنسى قتيلاً بالكلاب(١)

---

(١) يعني القتيل بالكلاب: عمه شرحبيل بن الحارث بن عمرو الذي قتل في يوم الكلاب.

ما سبب عدم بقاء رب الأسرة في بيته؟!

وقضية خروج الرجل من بيته أو عدم البقاء فيه بصورة منتظمة تعد سبباً من أسباب تفكك الأسرة ولهذا فهي مشكلة بارزة. وقضية اجتماعية عصرية تعاني منها بيوتات كثيرة.

ـ ونحن إذا ما أردنا معرفة سبب عزوف الرجل عن البقاء في بيته وبين أسرته فإن ذلك يتطلب منا تخرصات واستقراءات كثيرة أهمها يدور على محورين رئيسين. . أحدهما القول بأن له رفاقاً يجرونه إلى أماكن تجمعاتهم حيث تنعقد الجلسات الليلية التي تدور فيها أحاديث السمر وتبادل الأشعار والنوادر والطرف والحكايات وما إلى ذلك من وسائل اللهو البريء الذي يجد فيه متعة تنسيه بيته وأهله ولم يعد في مقدوره التخلي عن الحضور إليه.

أما الثاني: فهو القول بأن ربة بيته ربما أنها لم تكن تملك أسلوب الملاطفة وحسن المعاشرة فلا يرتاح بسببها إلى البقاء في البيت. وهذه قد تكون العمود الفقري في تلك القضية. ولقد نبّه إليها كثير من أصحاب الأقلام والنقاد والشعراء بل أولوها اهتماماً بالغاً. وعالجوها بأساليب مختلفة وطرق متعددة. . لكنها ما زالت قائمة والتذمر منها مستمر.

ولقد كان للشاعر السعودي أحمد يحيى عطيف مساهمة في تصوير تلك القضية. كما كان له أسلوب يهدف إلى حلها. فبإحساسه الذكي رأى أن يجعل من طفله «يحيى» سائلاً يسأله عن عدم بقائه في البيت وعن عبوسه إذا ما أتى إليه:ـ

قال لي - يحيى - لماذا يا أبي
عابس الوجه سريع الغضب
كم بدت لي يا أبي منك خصال
ما لها من طبعكم من نسب
لم تعد كالأمس في وجه بشوشاً
أو تعر أيَّ اهتمام طلبي

ويمضي يحيى مذكراً أباه بأنه مع الأصحاب بشوش ضاحك وأن التغير لا يطرأ عليه إلَّا إذا أتى البيت:

ومع الأصحاب ألقاك ضحوكاً
عكس ما عندي فيا للعجب

وتبوء محاولة يحيى بالفشل في معرفة سر العبوس الذي يظهر على وجه أبيه أثناء بقائه في البيت:

كلما حاولت أن أحظى بقرب
أو حنان منك يروي سغبي
عصفت بي ريحكم واقتلعت
من سمائي كل طيف مخصب

ويلجأ إلى تذكر أبيه بماله من حق عليه طالما أنه صغير لم يبلغ الحلم وأنه يجد الراحة كل الراحة في البقاء إلى جنبه.

هل نسيتم يا أبي حقي كطفل
في زمان وارف بالنوب

ثم يزيد في تذكره محاولاً ترقيق قلبه بأن دور الأب ليس في تأمين الأكل أو غيره من متطلبات الحياة.

أم حســـبــتــم أن دور الأب دومــاً
وفـــرة الأكـــل ومـــدّ الـــحـــســـب

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ٢٢ بيتاً وقد أحسن الشاعر صنعاً في معالجة هذه القضية التي يعاني منها كثير من البيوت في عصرنا هذا كما أسلفت.



رضاح العبس!!

اتفقت مع ـ سعيد ـ على استصلاح أحواض في حديقة منزلي فأعطيته مسحاة وبعض ما يحتاج إليه من عزق الأرض وتسويتها ثم تركته فترة من ذلك النهار ثم عدت إليه. وإذا به جالس وقد بقي حوض واحد لم يعزقه. فسألته لماذا قال: تعبت قلت: استرح قليلاً ثم استأنف العمل. قال: لا أرغب في مواصلة العمل. قلت إن اتفاقنا على عزق جميع الأحواض. قال صحيح. ولا أريد منك أجراً. فعجبت لأمره. وحاولت إقناعه بسياق المثل القائل. لا تكن «مثل رضاح العبس» الذي أخذ أجراً على رضح عبس فرضحها عدا عبسة واحدة لم يرضحها. فحرم أجره بسبب عدم رضحها.

وكان قد حضر هذه المناقشة أحد الأدباء. فقال: لقد ضربت له مثلاً رائعاً لكن ما معنى الرضح وما هو العبس؟ قلت: رضح لغة صحيحة والعبس هو نوى التمر. وهي لغة صحيحة أيضاً. قال: ـ إن كل شيء عندك يصبح صحيحاً. قلت أتريد أن أسوق لك الدليل على ذلك بقول شعراء قدامى؟. قال: هات قلت. فعلى الرضح خذ قول الأخطل من أرجوزة له:

قبيلة ليس لها منادحُ
ذلّت فما ينبح عنها نابحُ
مثل نوى السوء نفاه الراضحُ
أو كعصا السوء براها الناقحُ

وقول جران العود النميري:

تخطى إليّ الحاجزين مُدلّة
يكاد الحصى من وطئها ترضح

وقول أبي النجم العجلي من أرجوزة له واصفاً حافر فرسه.

بكل وأب للحصى رضاح
لي بمصطرّ ولا فرشاح

ويقول أحدهم:

خبطناهم بكل أرَحّ لأمٍ
كمرضاحِ النوى عبل وقاح

ومما تقدم نعرف أن الرضح هو كسر النوى أو الحصى. ويقال رضخ بالخا المعجمة... - وفي بعض نواحي نجد يسمون نوى التمر عبسا إذا أن فيه من حيث الحجم والشكل بما ييبس على هلب الذنب من البول والبعر ويسمى عبساً. وفي اللسان - عبس - عن أبي عبيدة قال: عبست - يعني الإبل - في أبوالها يعني أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها.

وذكرت أنني أعطيت سعيداً مسحاة وهي آلة يدوية معروفة في نجد عموماً وهي تستخدم لعزق الأرض وغير ذلك. وهي لغة صحيحة ورد ذكرها في اللسان - عزق - عن ابن البري قوله: المعزقة ما يعزق به الأرض فأساً كانت أو مسحاة أو شكة - أخيراً أيها الأديب أرجو أن يكون قد زال الشك عن عدم صحة لغة ما ذكرت.



كنت أظنها قصيدة قصصية!!

وقفت على قصيدة للشاعر السعودي محمد محمود جاد الله عنوانها «الصياد والظباء» وكنت قد ظننتها قصيدة قصصية تضمنت حواراً دائراً بين صياد وظباء.. وقلت في نفسي: ـ أستمتع بقراءة هذا الشعر القصصي وأعرف ما دار بين الصياد والظباء لعله فيه شيء من النوادر والطرف التي كثيراً ما يتحفنا بها شعراء القصة. وقد كان مطلعها:

يا مضيعا عمره في غير شي
هذه الأيام ما دامت لحي

واستوحيت من هذا المطلع أن ظبية من الظباء تنصح صياداً بأن لا يضيع عمره في مطاردتها. وأن يتجه إلى ما يصلح شأنه ويبني مستقبله. وليعلم أن الأيام لا تدوم لحي وأن عليه أن يغنم منها ما يدعو إلى التفكر في التخلي عن طرد الظباء.

لكنني عندما وصلت في قراءتي لتلك القصيدة إلى البيت الثامن منها أدركت أنها ليست قصيدة متضمنة لقصة صياد حقيقي وظباء حقيقيات. وأن الشاعر قد أوهم قراءه بعنوان القصيدة المتقدم ذكره. حيث رمز للموت بالصياد وللخلق بالظباء.. اسمعه وهو يكشف عن حقيقة ما كان يقصده:ـ

ما فصيح فعلت من رمسه
لا ولا ينجو من المكتوب عي

يدفن الآمال في أعماقنا
ثم يلوي هذه الأعناق لي

إنـــنـا نـــذوي كـــأزهـــار الـــربـــا
مـــا لـــنـــا مـــنـــه مـــفـــرّ يـــا أخـــي

يـــحـــصـــد الأرواح فـــي صـــولاتـــه
أيـــهـــا يـــفـــريـــه فـــريـــاً ثـــم أي

إنـــه يـــصـــطـــاد مـــا يـــحـــلـــو لـــه
مـــن ظـــبـــاء ظـــبـــيـــة بـــعـــد ظـــبـــي

فـــاتـــك لا يـــرعـــوي عـــن قـــنـــصـــهـــا
لـــيـــس يـــجـــدي فـــي نـــزال الـــمـــوت شـــي

إن يـــحـــن حـــيـــن امـــرئ فـــي يـــومـــه
مـــالـــه بـــعـــد رقـــاة أو دوي

والقصيدة أطول من ذلك بكثير. فهي تبلغ نحواً من واحد وعشرين بيتاً وقد قرأتها في ملحق «الأربعاء» تاريخ ١٣ ربيع الآخر سنة ١٤١٢هـ. وهو ملحق يصدر ضمن جريدة ـ المدينة ـ كل يوم أربعاء.. أما موضوعاته فثقافية. اجتماعية. فنية.. ومستواه جيد جداً ـ حيث تتبارى فيه بعض الأقلام المعروفة بالأصالة وعمق الثقافة.



من إيجابيات الشعر وسلبياته!!

والذي لا يرى للشاعر دوراً في المجالات المرتبطة بحركة الناس وتعاملهم ليس له مكان في قائمة أصحاب المعرفة والثقافة لأنه ـ إما أن يكون جاهلاً بأخبار الأمم وثقافتها. أو أنه يعيش في دائرة ضيقة من المعرفة المقصورة على فرع بسيط من فروع الثقافة.

ـ أما الشعر نفسه فإن واقعه يكاد يقسمه إلى قسمين رئيسيين أحدهما إيجابي يتمثل في الإصلاح والتوفيق والتسامح والتناصح وإطفاء نار الفتن وإزالة الأحقاد من النفوس.. والتوصية بالأخذ بمبدأ التفاهم والعقلانية في حل المشكلات التي تنشب بين جماعة وأخرى. أو دولة وأخرى. أو حتى بين شخص وآخر..

ـ أما القسم الثاني فهو سلبي يثير الأحقاد ويشعل نار الفتنة. ويرى الأخذ بالثأر أفضل من العفو والمسامحة مما يزيد المشكلة التي يتولى عرضها تعقيداً ويوسع دائرة الخلاف حتى تصبح حرباً شعواء يتضرر منها جميع أطرافها.

والشعر يكون محموداً في بعض الجوانب الحماسية كالتحريض على الغيرة على المحارم. والاتصاف بصفات الرجولة. والتمسك بالخصال المحمودة.. ويكون مذموماً حينما يوظف في الهجاء المقذع والسخرية اللاذعة وغير ذلك مما يتعرض فيه إلى مثالب الناس والطعن في أعراضهم وأنسابهم. وذكر عوراتهم.

ـ وكثيراً ما يوجه الشعراء أنفسهم نقداً للشعر نفسه فيثنون على جيده ويصفون ما لمحاسنه من أثر طيب على حياة الناس. ـ ويمقتون

سيئه ويبدون أثره السيء في حياة المجتمع من ذلك ما قاله الشاعر محمود محمد الجيشي من قصيدة له عنوانها ـ الشعر ـ وقد ضمنها ديوانه «أسرار الحياة» وهي قصيدة تبلغ نحواً من ثمانية وعشرين بيتاً. منها قوله:ـ

الشعر ليس تكلفا
الشعر ليس له نظير

أرأيته يحيي العزيـ
مة في الضعيف المستجير

أرأيته يوم الوغى
سيفا على العادي المغير

أرأيته يصلي الورى
بالوعظ في نار السعير

أرأيته فوق المنا
بر باكيا حال الفقير

أرأيته يجلي الحقا
ئق للبصير وللضرير

أرأيته روح المحا
فل للمليك وللأمير

ثم يقول قبل البيت الأخير مبدياً ارتياحه لكونه شاعراً.

الشعر فيه سعادتي
الشعر لي خير وفير



وقع خلو الدار من الطفل
الذي كان يملؤها ضحكاً وبكاء!!

والرجل الذي قد زرقه الله أطفالاً يملؤون بيته ضحكاً حيناً وحيناً بكاءً يجد متعة في البقاء في بيته ومشاركة أطفاله ألعابهم وتساليهم وسماع كلماتهم المملوءة بالطهر والبراءة.. ولهذا فإن شعور الوالد حينما يأتي إلى بيته فيجد الصمت مخيماً عليه فلا يسمع ما كان معتاداً سماعه من لغة الأطفال يخالجه في لحظة ريب وخيفة من ذلك الصمت الذي لم يعهده حين دخوله منزله فتقفز إلى ذهنه بسرعة هائلة عدة أسئلة يكون على رأس قائمتها هذه الأسئلة.. أين هم وماذا أصابهم؟ لقد رابني سكوتهم فهل من تفسير سريع لذلك؟ كل هذه الأسئلة الخاطفة المتلاحقة تعترض طريقه وهو من الباب الخارجي إلى داخل البيت. وهناك يجد الجواب متضمناً عدة احتمالات ليست بمستغربة الوقوع.

والتعبير عن غياب الصغير عن البيت قد تبادله كثير من الشعراء في أسلوب منه ما أشرت إليه آنفاً.

وحسن حجاب الحازمي أحد الشعراء الذين خاطبوا أطفالهم حينما لم يجدوهم لحظة قدومهم إلى منازلهم... أو تذكروا غيابهم مع أمهم حينما تكون في زيارة لا تتم إلا بالسفر والترحال..

يقول حسن الحازمي مخاطباً ابنه «حسان» في أبيات تبلغ نحواً من أربعة عشر بيتاً استهلها بهذه العبارة النثرية: «الإهداء إلى حسان وأمه اللذين تركاني وحيداً في الرياض» ـ ويقصد بالرياض ـ مدينة الرياض ـ منها قوله:

حسان غاب فلا ضحك ولا صخب
لا شيء في الدار إلا وحشة تثبُ

إلّا الزوايا تحيل الصمت أسئلة
عن الصغير الذي يحلو له اللعب

أين الصغيرُ الذي ما انفك مبتسماً
يجرُّ خُطواته نحوي ويضطرب

يعود ينهض لكن لا تطاوعه
أقدامه ثم يثني عزمه التعب

وقوله منها:

حسان يا نور عيني ويا أملي
لو أبصرت عينُك الجدران تصطخبُ

لو أبصرت عينُك الأوراق ترفضني
لا ترتضي قلمي. بل كفك الشّغِب

حتى الوسائد ما تنفك تسألني
حتى الجرائد والأقلام والكتب

الدار يا مهجتي باتت تؤرقني
فكل شيء له عينٌ بها عتبُ



عودة للكتابة عن الأم!!

والحديث عن التي نذرت نفسها وحياتها في سبيل إسعاد أبنائها لا يمل لأن فيه عظة ومتعة. وعبرة. وتضحية.. ولهذا تجدني أيها القارئ الكريم قد كتبت عنها أكثر من موضوع. هي مبثوثة في أجزاء هذا الكتاب تحت عناوين مختلفة.

ومعاودة الكتابة عن الأم ربما يكون جزءاً مما تستحقه. وتسديد قسط ضئيل من دين مستحق لها علينا.

وإذا كان لا بد من ذكر السبب لمعاودة الكتابة عن الأم فإن مرّد ذلك إلى قصيدة قرأتها للشاعر السعودي محمود الحليبي الذي أرخى عنان لسانه بالإشادة بمآثر الأم التي يطفح قلبها بالحنان. ويمتلئ بالخوف على ابنها من نوازل الدنيا.. - اسمعه وهو يصور حالة الخوف الذي يخالج شعور أمه نحوه في مستهل قصيدة عنوانها -: أشواك.. على طريق - الأمل -:

قالت بنيّ زرعت الشوك في كبدي
وهرولت دمعة من جفنها السهد

أحسست أن دمي قد ضل أوردتي
وإن قلبي طير فرّ من جسدي

عطرت بالسعد يا أماه مركبتي
فأينما طرت لا أرسو على نكد

لكنه وأعني بذلك الشاعر الحليبي. يأخذ في تهدئة مشاعر أمه

وطرد المخاوف التي تعتريها نحوه. ثم يعدها بأنه لن يأتي أمراً يزرع في نفسها خوفاً عليه ويطلب إليها أن تكون مطمئنّة إليه حتى لا تتأثر مما تبوح به من شعور نحوه وتخوف على نهج حياته:

أمـي زرعـت بـقـلـبـي كـل طـيـبـة
فكيف أزرع ما يؤذيك يا سندي؟

أمي الحبيبة ما يشجيك... اقترفت
يدي جناحاً فلا واصلتها عضدي

ردي علي فقلبي الآن جمر غضى
وفـي حـديـثـك يـا أمـاه مـبـتـردي

ثم يصف موقف أمه من قوله. وما عبرت به عن عدم الشك في أنه يسلك طريقاً غير مألوفة. وإنما خوفها كله من طموح نحو آفاق ليس في مقدورها تزويده بما يحقق رغباته.. لكن إيحاءة يدها المعبّرة عن الموافقة على تطلعاته قد أعطته دفعة قوية نحو الاتجاه إلى ما يهدف إليه:ـ

هـزت يـديـهـا وقـالـت وهـي بـاكـيـة
حـاشـاك ذاك مـعـاذ الله يـا ولـدي

لـكـن طـمـوحـك لـلآفـاق أرقـنـي
تبغي الكمال وليس الأمر ذا بيدي



شيء من مفهوم المطارحات الشعرية!!

وللمطارحات أو المساجلات الشعرية مفاهيم عند المتطارحين أو المتساجلين. فهي إذا لم تكن بين شاعرين يأتي كل منهما ببيت على البديهة من قوله كمساجلة عبيد بن الأبرص وامرئ القيس... كانت بين حفظة الشعر... - والمتطارحون يضعون شروطاً لتطارحهم قبل البدء بها.. وذلك كأن يتفقوا على أن تكون مطارحتهم موضوعية وغير مرتبطة بأن يكون أول البيت المطلوب هو حرف قافية البيت المطروح ولو افترضنا أن متساجلين اتفقا على أن يستشهدا على - الصبر - بأبيات من الشعر تتصف بالحكمة فإن الأول منهما سيأتي بقول معن بن أوس أو ما يشبهه:-

صبرت على ما كان بيني وبينه
وما يستوي حرب الأقارب والسلم

وسيأتي الثاني بقول حصين بن حمام المري أو ما يشبهه.

صبرنا وكان الصبر منا سجية
بأسيافنا يقطعن كفا ومعصما

وسيرد الأول ويأتي بقول عبد الله بن طاهر أو ما يماثله:-

صبرت ومن يصبر يجد بعد صبره
ألذّ وأشهى من جنى النحل في الفم

ويرد الثاني مستشهداً بقول أسامة بن منقذ أو ما يشاكله.

والناس من لم يصطبر لمصابه
صبر الرّضا صَبَرَ اصطبار الراغم

ومن خلال هذا النموذج نتبين أنهما لم يتقيدا بالقافية وإنما كان هدفهما وحدة الموضوع. وهكذا تسير المساجلة من هذا النوع مقيدة بوقت زمني يعطي كل واحد منهما وربما شملت المساجلة أكثر من اثنين.

أما المطارحة التي تسير على القافية أي أن تكون قافية البيت المطروح هي أول البيت المطلوب وهي أكثر شيوعاً بين السمار من الأدباء فهي تسير على نحو هذا النموذج:ـ

ـ الأول: ـ يقول أبو العلاء المصري:ـ

فضيلة النطق في الإنسان تمزجها
نقيصة الكذب المعدود في النقم

الثاني: ـ يقول محمود الوراق:ـ

ما زال يظلمني وأرحمه
حتى رثيت له من الظلم

الأول: يقول أبو نواس:ـ

متْ بداء الصمت خير
لك من داء الكلام

الثاني: ـ يقول الأرجاني:ـ

مودته تدوم لكل هول
وهل كل مودته تدوم

وقد تكون المساجلة بين عدد من الأشخاص كل عن نفسه وقد تكون بين فريقين. وهذا النوع من المساجلة يخضع لشروط المتساجلين من ناحية المهلة الزمنية الممنوحة للمساجل فقد تكون ثوانياً أو دقيقة أو أكثر من ذلك. وذلك حسب ما يتم الاتفاق عليه.

الكنعاني يستلهم ذكريات من القصر العاشق!!

تهزّ الذكريات ضمير الشاعر والكاتب والرسام بل كل ذي إحساس ومقدرة على استرجاع صورة الماضي بخياله الذي يعانق أزمنة الذكريات ويعيش في أجواء الماضي الذي يمثل بين عينيه استجابة لخياله الذي لا يحدّ انطلاقته بعد زمنٍ ولا صعوبة في رسم صورة خبر.. كان..

والشاعر هو أكثر الفنانين وقوفا على الأطلال. والأساطير التي نسجتها أقلام القدامى وخلفتها صورة قائمة تتضارب الآراء حولها - أهي. وهم. أم حقيقة. تمثل فارساً يمتطي صهوة جواده. وبدوياً متلفعاً بعباءته ويسير خلف قطيع أغنامه وأميراً يطل من شرفات قصره. وتاجراً - يجلس متربعاً على عتبة دكانه. وفلاحاً يعزق الأرض بمسحاته. أو غير أولئك من أصحاب المهن والحرف التي لا يتسع المجال لذكرها. مما يستلهم منها مادة يؤصل بها انتاجه الفكري في أسلوب تصويري ينطق بلسان حال مشاهدته لها ويربط حاضره بماضيها.

قال الشاعر العراقي نعمان ماهر الكنعاني وهو يقدم للقارئ قصيدته التي جعل عنوانها «قصر العاشق»: - على مقربة من دجلة قصر الخلافة بمدينة سامراء يقوم قصر العاشق الذي بناه الخليفة المعتمد على الله وقد عرف بالمعشوق لجماله وافتتان الناس فيه.. إلّا أن العامة من الناس هناك تدعوه - العاشق - وتروي سبباً لهذه التسمية موجزة:-

إنه قصر لأمير عباسي كانت له مع إحدى عذارى قصر الخلافة المقابل له من جانب دجلة الشرقي قصة غرام فاشل أدت به إلى الانقطاع في هذا القصر - وهذه قصيدة من وحي ما تقوله العامة:

ـ أما القصيدة التي ذكرها فهي طويلة تقرب من ثلاثين بيتاً منها قوله :ـ

قم حدث الناس عن دنيا الصبابات
يا عاشقاً عاش في عصر الروايات

يا راهباً عند صد البيد منفرداً
هلا مللت أفانين الإشاعات

قالوا عشقت ونال الحب منك حشى
ودون حبك بيض المشرفيات

ذكرى غرامك في الأيام خالدة
يا من قضى العمر في كتم الجراحات

وقصر حبك والدنيا تطوف به
نشوى العواطف مزهو اللقاءات

فليت جدرانه وهي التي عرفت
أسرار ليلك باحت بالخفيات

أكان ما زعم الراوون أنكما
ما ذقتما الوصل حقاً أم دعايات

شككت بالزعم بل إني أكاد أرى
طيف اللقاءات في ظل العريشات



حرف ـ العين!!

والعين التي هي أحد الحروف الهجائية. والتي قال عنها علماء اللغة والتجويد أنها أحد حروف الإظهار الحلقي قد كان لها نصيب الأسد من أي مادة ترتب على الحروف الهجائية ولا أريد هنا استعراض الأشياء التي تبدأ بحرف العين بقدر ما أريد ذكره من حكمة أو نادرة. . . ـ فمن منقولات أبي منصور الثعالبي المدونة في رسالته «برد الأكباد في الأعداد» ومما جاء في فصل عجائب الاتفاق قوله: ـ ملكان أول كل منهما عين قتل كل واحد منهما ثلاثة ملوك أول كل اسم منهم عين أحدهما عبد الملك بن مروان. قتل عبد الله بن الزبير. وعمرو بن سعيد بن العاص. والآخر أبو جعفر المنصور واسمه عبد الله بن محمد قتل أبا مسلم واسمه عبد الله وعمه عبد الله بن علي وعبد الجبار بن عبد الرحمن والي خرسان. . ـ وقوله: ثلاثة بنو أعمام في زمان واحد يسمى كل واحد منهم علياً وكل واحد منهم فقيه علم عابد يصلح للإمامة. قال الجاحظ هم: علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب وعلي بن الحسين. وعلي بن أبي طالب بن عبد المطلب.

وقوله: كان مروان بن محمد يقول نجد في كتبنا أن عين بن عين بن عين يقتل ميم بن ميم بن ميم وأظن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز قاتلي فأنا مروان بن محمد بن مروان فبلغ عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس قوله هذا فقال غلط أبو عبد الملك فإنّي أكثر عينات منه لأني عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم واسم هاشم عمرو. فكان هو الذي قتله.

ومن دعاء النبي ﷺ: اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع وعين لا تدمع. وعلم لا ينفع. ودعاء لا يسمع. أعوذ بك من شر هذه الأربع.

وأرى أنه من الأفضل في هذا الموضوع المرتب على حرف العين أن آتى على ذكر أبيات من الحكمة تكون مبدوءة بالعين ومقفاة بها..
- قال أحدهم:-

عليك بفعل الخير لو لم يكن له
من الفضل إلّا حسنه في المسامع

ويقول أبو العتاهية:-

عبدُ المطامع في لباس مذلة
إن الذليل لمن تعبّده الطمعْ

ويقول ابن جبير الكناني:-

عجبت للمرء في دنياه تطمعه
في العيش... والأجل المحتوم يقطعه

ويقول أحمد شوقي:-

عليكمو بخيال المجد فائتلفوا
حباله وعلى تمثاله اجتمعوا

ويقول ابن زريق:-

علّ الليالي التي أضنت بفرقتنا
جسمين تجمعني يوماً وتجمعه

ويقول ابن خاتمة الأندلسي:-

عامل زمانك إن النقص شيمته
بضد ما تبتغيه منه واقتنع

ويقول سويد بن كاهل مادحاً :ـ

عـادة كـانـت لـهـم مـعـلـومـة
في قـديـم الـدهـر لـيـسـت بـالـبـدع

ويقول تأبط شراً :ـ

عـلـى غـرّة أو نـهـزة مـن مـكـانـس
أطـال نـزال الـقـوم حـتـى تـسـعـسـعـا



نقطة النهاية للفصل الأخير!!

ما من شيء على هذا الوجود إلّا وله نهاية وهلاك محتوم. قال تعالى في الآية الأخيرة من سورة القصص: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾. وقال تعالى في سورة الأنبياء آية ١٠٤: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

ـ وإذا ما نظرنا إلى ما بين أيدينا من عمل هو من صنعنا أدركنا أن لأكثرها نهاية تنتهي إليها غير أنه يكون لنا فلسفة حول نقطة النهاية بل وحول الوصول إليها.. فنهاية الرؤية الفكرية مثلاً يحصل في الوصول إليها خلاف كبير بين أولئك الذين يطلقون خيالاتهم ليصنعوا رواية ذات فصول متعددة.

وإذا ما صرف النقاد أنظارهم عن جوهر ما يقرأونه من روايات وقصص وحكايات من نسج الخيال فإنهم سَيُلْقُون النظر لا محالة إلى الكيفية التي توصل بها الكاتب إلى نقطة النهاية وعندها يحصل الخلاف بينهم وتكثر عباراتهم النقدية المستفتحة بـ «لو» وذلك كأن يقول أحدهم: لو أن كاتب الرواية أضاف إليها فصلاً بين فيه كذا وكذا.. ويذكر أشياء يحسن ورودها في صلب الرواية.. أو كأن يقول أحدهم: لو أن الكاتب استغنى عن ذكر كذا وكذا.. ويذكر أشياء لا يحسن بالكاتب إيرادها في روايته. وإنما قصد بها تطويل القصة.. أو كأن يقول أحدهم لو أن كاتب الرواية قدّم الفصل الثاني على الأول أو قدم الخامس على الثالث لكانت الرؤية لمتابعها أوضح.

وهذا الاختلاف الذي يحصل بين النقاد من جهة وبين كاتب الرواية من جهة أخرى يجعلنا ندخل من زاوية فلسفية صغيرة جداً نرى من خلالها أن عدم مسايرة الرؤية للفكر في بعض الأحيان يصل إلى نهاية معرّضة للانتقاد. . . ـ ومن الشعراء الذين كتبوا شعراً قرروا فيه وحدة النهاية الحقيقة للرؤية والفكر وطموح النفس الشاعر محمد محمود جاد الله الذي يقول من قصيدة له تبلغ نحواً من ٢٦ بيتاً :

انتهت قصتي وتمت فصولاً
وسئمت الأيام عرضاً وطولاً

ولعمري إني رأيت الليالي
غمرات اللذات فيها فضولاً

هكذا العقل يقتضي أن نراها
ملئت علقما وساءت سبيلا

إنما عيشنا سراب تراءى
فأرانا الكثبان ظلاً ظليلاً

وجموع الإنسان من قبل راحت
ورعيل راح يقفو رعيلا

وشباب في ميعة العمر ناموا
نومة الموت لم يبلوا غليلا

غالهم دهرهم فأمسوا فرادى
تحت أجداثهم وهال مقيلا

إنه الموت قد طواهم زهوراً
لم يكن أيهم مريضاً عليلا



أبو محمد يغني شعر أبي القنافذ!!

وأبو القنافذ هو أعرابي من بني سليم يكنى بأبي القنافذ ـ هكذا قال صاحب الأغاني ولم يزد على هذا التعريف ـ. ورواية الخبر إن إسحاق بن إبراهيم الموصلي ـ وكنيته أبو محمد حدث بأنه دخل أعرابي من بني سليم ـ سُرَّ من رأى ـ وكان يكنى أبا القنافذ فحضر باب المعتصم مع الشعراء فأذن له فلما مثل بين يديه أنشده:ـ

مراض العيون خماص البطون
طوال المتون قصار الخطا

عتاق النحور دقاق الثغور
لطاف الخصور خدال الشوى

عطابيل من كل رقراقة
تلوث الإزار بدعص النقا

إذا هن منيننا نائلاً
أبى البخل منهن ذاك المنى

إلى النفر البيض أهل البطاح
وأهل السماح طلبنا الندى

لهم سطوات إذا هوجموا
وحلم إذا الجهل حل الحبا

يبين لك الخير في أوجه
لهم كالمصابيح تجلو الدجى

سعى الناس كي يدركوا فضلهم

فقصّر عن سعيهم من سعى

قال: فاستحسنها المعتصم وأمرني فغنيت فيها وأمر للأعرابي بعشرين ألف درهم ولي بثلاثين ألف درهم. وما خرج الناس يومئذٍ إلّا بهذه الأبيات..

ـ وهذه القطعة الشعرية مع جبرها تعد من أحاسن ما اصطاده أبو الفرج الأصبهاني من أخبار إسحاق الموصلي مع الخليفة المعتصم.

وقول إسحاق ـ وما خرج الناس يومئذٍ إلّا بهذه الأبيات ـ فيه دلالة على أن قصيدة أبي القنافذ طويلة. وإن أرق وأعذب ما فيها من الغزل الأبيات الأربعة الأول وإن أحسن ما فيها من المدح هي الأبيات الأربعة الأخيرة... وفيه دلالة ثانية تعطينا بوجه عام أن ما يبقى من الشعر إلّا أجوده ولا يخلد التاريخ إلّا أحسنه.

أما الدلالة الأخيرة فهي أن الشعر إذا ألقي في مجلس ملك أو خليفة أو ناد كبير حظي باهتمام الرواة. وسارت به الركبان إلى كل مكان.

ويحسن أن نهمس بهذا التعليق في أذن كل متشاعر حتى لا يتمادى في التطاول على الشعر. والزعم بأنه شاعر.



ماذا تعني صرخة الطفل عند ولادته

يطلق الفلاسفة وعلماء النفس والشعراء وغير أولئك من الكتاب الأعنة لأقلامهم في البحث عن مفهوم الصرخة الأولى التي يطلقها الطفل من حنجرته الغضة لحظة ولادته. فيأتون بأقوال مختلفة بحسب اختلاف مفاهيمهم لتفسير تلك الصرخة. لكنها تكاد تجمع على نقطة واحدة تشير إلى أنها البوح بعدم الرضا عن الدنيا التي قدم إليها. أما لماذا فذاك ما هم فيه مختلفون.

وإذا ما أردنا إمعان النظر فيما قاله فريق من الشعراء من وجهة نظر فلسفية حول مفهوم بكاء الطفل لحظة ملامسة هامته الأرض وما يقابل به من سرور لدى الأبوين.. ومن الشعراء الذين أخذت فلسفتهم أبعاداً وشملت مساحة أعطت أقلام النقاد مجالاً للخوض فيما رآه من رأى في هذا الموضوع هو أبو العلاء المعري فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة الذي جعل الحزن في ساعة الموت أضعاف السرور والفرح في ساعة الميلاد[1]... وقد تبعه شعراء كثيرون من المؤيدين له دونما إضافة لما قاله.. لكنهم يجمعون على أن بكاء الطفل لحظة ولادته ليس عفوياً كما تفسره العامة... وإنما هو بكاء يترجم عدداً لا حصر له من الاستفهامات التي ينتهي بعضها بعلامة الاستغراب والاستنكار أو هو بالأصح عنوان شامل لفصول حياتية متعددة ومتنوعة لا يحدد نقطة نهايتها إلّا خروجه من الدنيا حيث يقف به مالك الموت الذي وكل به فيجف قلمه وتطوى صحيفته.

---

(١) إشارة إلى بيت أبي العلاء:ـ

إن حزناً في ساعة الموت أضعا   ف سرور في ساعة الميلاد

ولا أريد هنا أن أعلق على ما قيل في هذا الموضوع من أقوال ذات اتجاهات فلسفية. لا لشيء وإنما لأنني سوف لا آتي بجديد يذكر.. ولهذا أترك أحد الشعراء ينقل لنا الصورة بما فيها من بعض التفسيرات لبكاء الطفل لحظة ولادته.. وليكن شاعرنا في هذا الموضوع فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين شيخ جامع الأزهر المتوفى سنة ١٣٧٧هـ حيث يقول في مقطوعة له ضمنها ديوانه «خواطر الحياة».

كم ليال مضت ولم تك شيّا
فلمّا صرتَ نامي الجسم حيّا

كنت في ظُلمةٍ فوافيت نوراً
تتملّاهُ بكرةً وعشيّا

أكرمتْ نُزَلك الحياةُ وأبدتْ
لك يوم الولاد وجها سنيّا

فعلام استقبلتها بنحيب
إن في ذا النحيب سرّاً خفيّا

من يلاقي البشير في هذه الدار
فسرعان ما يلاقي النعيا

كيف يصفو عيش الأريب وقد جا
ور قوماً ضلوا الصراط السويا

والهوى كالغراب إن ألف النفـ
س رأيت النعيم منها قصيا

فاصرف النفس عن هواها إذا ما
رُمت عيشاً من الهموم نقياً



لو كان امرؤ القيس فعولاً لصار كتوماً!!

لقد نسج الرواة حول حياة امرئ القيس في صباه وعنفوان شبابه قصصاً وحكايات غرامية منها ما لا يليق بالشهامة العربية حيث أعطى بعضهم خياله في نسج الإساءة إلى الشيم العربية فجعل امرأ القيس عاشقاً لامرأة أبيه «هر» وأنه كان قد حاول مواصلتها. بل إن هذه الأكذوبة قد صيغت في رواية سينمائية ومثلت تمثيلاً فيه إساءة للعربي أما عن تعشقه للفتيات ومغازلتهن واللهو وحب الصيد وشرب الخمر والتشرد واللعب والانغماس في الملذات التي كانت سائدة في أوساط الجاهليين فإن شعر امرئ القيس فيه ما ينطق بذلك وإن كان يشك في صحة نسبة بعض منه إلى امرئ القيس ومما نطق به امرؤ القيس معترفاً. قوله:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني
كبرت وأن لا يُحْسِن السر أمثالي

كذبت لقد أُصْبِي على المرء عرسه
وأمنع عرسي أن يُزَنَّ بها الخالي

ويا رب يوم قد لهوت وليلة
بآنسة كأنها خط تمثال

يضئ الفراشَ وجْهُها لضجيعها
كمصباح زيت في قناديل ذُبال

كأن على لباتها جمر مصطل
أصاب غضى جزلاً وكف بأجزال

ويقال أن هذا التشبيب ببسباسة وغيرها حمل الناس على عرض أمره على أبيه. ومن أبوه يا ترى؟. إنه حجر بن الحارث ملك بني أسد وغطفان. فغضب عليه أشد الغضب ونهاه عن ذلك المسلك المشين به والذي لا يليق به كأمير يتطلع إلى حميد أفعاله لكنه لم ينته بل ظل على تشبيبه بنساء بني أسد..

وهناك رواية تقول أن أباه لما نهاه ولم ينته وزجره ولم يزدجر بلغ به الغضب عليه مبلغاً جعله يأمر مولى له يقال له ربيعة بأن يذهب به فيذبحه ويأتي إليه بعينه فأخذه ربيعة واحتفظ به في مكان.. ثم ذبح جؤذراً وجاء بعينه إلى أبيه فندم حجر على ذلك وأظهر الحزن والأسف فقاله ربيعة: أبيت اللعن إني لم أقتله. فقال جئني به الآن. فلما جاء به نهاه عن قول الشعر فامتثل... غير أنه كان محباً للهو واللعب مولعاً بمغازلة النساء ومفاكهتهن فكان ذلك مما ينزع به إلى قول الشعر.

وتبذله في تغزله ربما أعطى الدليل على أنه يقول ما لا يفعل لأنه لو كان فاعلاً لصار كتوماً... فمن ألفاظه المبتذلة:

سموت إليها بعد ما نام أهلها
سمو حباب الماء حالاً على حال

فقالت سباك اللّه إنك فاضحي
ألست ترى السمار والناس أحوالي

وقوله:ـ

فلما تنازعنا الحديث واسمحت
هصرت بغصنٍ ذي شماريخ ميّال



صمت العاشق يزيد من تأكيد عشقه!!

ينسج الشاعر خيوطاً ذهبية في بعض الأحيان. وبالذات عندما يقتنص خياله شيئاً من الأشياء التي تستدر رؤيتها أو سماعها قريحته فتقبل وفود التجليات الشعرية وترتفع راية الخيال المجنح فيحصل تزاحماً شديداً بين الواقع والخيال فتلتحم التحاماً يشكل كوكبة من الأبيات الشعرية الملتهبة التي تبوح بسر ذلك المرئي أو المسموع. أو المتخيَّل ـ بفتح الياء ـ.

وعلى الرغم من التحفظات والاحتياطات التي تتخذها الحواس في بعض المواقف التي يحيط بها الحب والوله. والاشتياق. إلّا أن الشاعر يستشف ذلك ثم يظهره في صيغة تعبيرية متشدد في بعض الأحيان. وبشيء من لباقة الأسلوب على استمرارية الصمت وعدم البوح بما يختلج داخل النفس من شوق وتلهف لسماع أو رؤية. وكأنما هو بذلك يقول ـ صمت العاشق رسول للمعشوق يؤكد موقفه من العشق.

والشاكي من عذاب الصد وألم الفراق تتردد في صورة تنطق بالتأوه المؤثر على نفس المشتكي. لكن البوح به هو ما يختلف عليه الكثير من العشاق من فئة الشعراء إذ أن منهم من يرى أن في البوح به علاجاً ناجعاً لما يخالج نفسه من ألم الفراق.. ومنهم من فضل الصمت كما أسلفت ويأخذ بمبدأ التناسي حينما يطلق لسانه في الوصف والتشبيه وتحديد الذكريات. وبشيء من الحذر الذي يبعده عن الإشارة بأصبع التعريف إلى الأشياء التي كانت تربطه بمعشوقه.

ولنجاح تجربة الصمت يؤكد أحد الشعراء وهو الشاعر ـ يس الفيل ـ على التزامه بعدم البوح بما يختلج في نفسه إذ يقول:ـ

لا تـنـطـقـي حـرفـاً فـإن هـوانـا
سيـذوب... إن باحـت به شـفـتـانـا

عـشـنـا بـه أمـلاً يـؤرق لـيـلـنـا
وبـه صـحـونـا مـتـعـبـيـن حـزانـى

ونـظـل رغـم الـجـرح نـنـسـج غـزلـنـا
مـن حـولـه.. مـن حـولـه ألـوانـا

ونعيش أسعد ما نكون إذا انقضى
لـيـل. وأرهـق فـي مـداه قـوانـا

لـم نـخـبـر الـنـجـم الـبـعـيـد بـسـرنـا
صُـنّـاه... حـتـى عـن دفـيـن رؤانـا

لا تنطقي حرفاً.. وخلي مقلتي
تـسـتـاف مـن عـيـنـيـك شـهـد هـوانـا

عـيـنـاك فـي وهـج الـتـكـتـم لـوحـة
وكـتـاب حـب يـزدهـي بـلـقـانـا

أتـصـفـح الأيـام عـبـر سـطـوره
فـيـعـود مـن خـلـف الـضـبـاب صـبـانـا



السفور خطوة إلى الفجور!!

والذين يرشدون النساء إلى التمسك بتعاليم الإسلام الحاثة على محافظتهن على ما لهن من هيبة ووقار تتمثل في احتشامهن بلباسهن وعدم التبذل والتكشف للرجال وعرض مفاتنهن على الأنظار.. يجدون معارضة شديدة من قبل الذين يسعون لفساد الأم والأخت والبنت وامتهان كرامتها.. وقد كان للإعلام بجميع وسائله دور إلى جانب كلا الفريقين. حيث انقسم إلى قسمين: قسم يختار من الحسنوات وربات الجمال ما يزين به انتاجه سواء كان صحفياً كتصوير الجميلات على أغلفة المجلات وصدور الصفحات أو إبرازهن في أدوار مسرحية أو سينمائية. واختيار ذوات الأصوات المتكسرة الفاتنة لتقديم البرامج الإذاعية أو غير ذلك من وسائل الدعاية التجارية كاتخاذ الصورة الجميلة علامة تجارية فارقة للسلعة المنتجة.

وفريق ينبذ هذه المظاهر ويحاربها بل يعدّها ضرباً من العهارة التي يجب أن لا تتفشى في المجتمعات الإسلامية فتسبب له الإنحلال الخلقي وتجلب له الدمار الأدبي. وإلى جانب هذا الفريق قرأت لفتاة سعودية نصيحة أعجبتني من حيث الأسلوب الإرشادي حيث قالت:ـ

أيتها الفتاة الكريمة والأخت الحبيبة. والأم الجليلة إليك هذه الكلمات النابعة من القلب أسوقها إليك وأنت مربية الأجيال وأم الأبطال، أهدي إليك هذه الآية الكريمة التي احتواها دستورنا الخالد وهي قول الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب: ٥٩] ـ هذه الآية الكريمة توجيه من الله سبحانه وتعالى إلى جميع نساء المؤمنين. يأمرهن بالعفة والستر والمحافظة على الحياء الذي هو زينة المرأة.. والمرأة

بلا حياء كالرجل بل أقبح صورة حيث لا هي امرأة ولا هي رجل خالفت فطرتها التي فطرها الله عليها.. قالت عائشة رضي الله عنها: «يرحم الله النساء المهاجرات الأول. لما أنزل الله» ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها» ولا تقولي يا أخيه: أين نحن من هؤلاء؟ وأنّى لنا أن نصل إلى ما وصلن إليه. ولكن علينا أن نتشبه بهن.

وفي هذا المعنى قرأت في كتاب «الحديقة» لمؤفه محب الدين الخطيب قصيدة لشاعر دمشقي منها قوله:

لا شيء فوق الثوب من
سيقانهن إلى النحور

والسُّوق في هذي الجوا
رب ليتهن بلا ستور

وعلى الوجوه براقع
وضعت لتزيد الغرور

فخرجن في هذا التبر
ج بعد تضميخ العطور

وذهبن للشكوى لمن
لهمُ مقاليد الأمور

يبغين أذناً بالسفو
ر أعن بطون أم صدور

إن لم يكن هذا السفو
ر فكيف تعريف السفور

قد كان في الحسبان هذا
مذ غدون بلا شعور

كل آفة تبلى بآفة

ونحن عندما نتابع البحث في مناهج الشعراء الهجائين نجد أن هناك مجالدة في بعض الأحيان بينهم. وتهاج ربما خرج بهم عن ميدان الأدب. وتنصلوا بتقاولهم وترادهم من مقود التأدب. وجاؤوا بألفاظ يخجل الأديب من رواية نصها.

ـ ولا أريد هنا أن أدلل على وجود هذه الظاهرة بأكثر من الإشارة إلى ما دار بين جرير والفرزدق والنميري والأخطل فهؤلاء خاضوا معارك تناولتها أقلام النقاد وأشبعت بالعرض والدراسة وألفت فيها مؤلفات أهمها ـ النقائص ـ وإنما أردت الإشارة إلى أن هناك مداعبات وتماحك يرقى في بعض الأحيان إلى التهاجي بين الشعراء. فيكون بمثابة جس النبض الذي يدرك من خلاله أحدهم أنه لا يستطيع مجاراة صاحبه في مثل هذا الميدان. فيأخذ منه جانب الحذر. ولا يدخل معه في أي مماحكة قد تتطور وتدخله في ميدان هجاء يصبح هو الخاسر فيه والنادم على خوضه. وليعلم في نفسه مفهوم المثل القائل «كل آفة تبلى بآفة» أو ما معناه.

وإذا ما أردنا أن نعرض صورة عن هذا المفهوم فإن التعريج على أبي دلامة يكون مناسباً لأن في فكاهته ونوادره ومداعباته ما يحقق الغرض.. ففي كتاب «معاهد التنصيص على شواهد التلخيص» جاء هذا النص: ـ دخل أبو عطاء السندي يوماً على أبي دلامة فاحتبسه ودعا بطعام وشراب فأكلا وشربا.. وخرجت إلى أبي دلامة حبيّة له فحملها على كتفه فبالت عليها فنبذها عن كتفه ثم قال:

بللتِ علي - لا حييتِ - ثوبي
فبال عليك شيطان رجيم

فما ولدتك مريمُ أم عيسى
ولا ربّاك لقمان الحكيم

ثم التفت إلى أبي عطاء فقال له: أجز يا أبا عطاء. فقال:

صدقتَ أبا دلامة لم تلدها
مطهّرةٌ ولا فحل كريم

ولكن قد حوتها أمُّ سوء
إلى لباتها وأبٌ لئيم

فقال أبو دلامة: عليك لعنة الله. ما حملك على ما بلغت بي هذا كله؟ والله لا أنازعك بيت شعر أبداً. فقال له أبو عطاء يكون الذي من جهتك أحب إليّ. وهذا الاعتراف من أبي دلامة لا يسلبه تميزه في مقدرته على صناعة الشعر الفكاهي الذي يحقق به الغاية ويصيب به الهدف.. كيف لا. وهو يقول لأحد الأمراء:

إذا جئت الأمير فقل سلام
عليك ورحمة اللّه الرحيم

وأما بعد ذاك فلي غريم
من الأعراب قبح من غريم

له مائة عليّ ونصف أخرى
ونصف النصف في صك قديم

دراهم ما انتفعت بها ولكن
وصلت بها شيوخ بني تميم



أبيات منتقاة!!

والمشتغلون بالأدب ورواة الشعر. يسألون في كثير من المناسبات عن الأبيات المفضل على غيرها بأي أسلوب كان. وفي أي مجال من المجالات... فتراهم يسألون مثلاً عن أغزل بيت. وعن أشجع بيت. وعن أصدق بيت. وعن أكذب بيت. وعن أهجى بيت. وعن أحكم بيت. وما إلى ذلك من الأبيات المتميزة بالتفرد بالنص الشعري أو المعنى البلاغي عما سواها. مما يثير الإعجاب والاستحسان.

ولقد ساهم أبو منصور الثعالبي في إيراد بعض ما تميز من الأبيات وما كان له خاصية أُستُحسن بها - في كتابه «الإعجاز والإيجاز» من ذلك أنه قال:-

قيل لبشار بن برد أخبرنا يا أبا معاذ عن أجود بيت للعرب فقال: إن تفضيل بيت على أشعار العرب لشديد ولكن أحسن كل الإحسان وأوجز وأعجز لبيد في قوله:

أكـذب الـنـفـس إذا حـدثـتـهـا
إن صـدق الـنـفـس يـزري بـالأمـل

وقال: إن أصدق شعر قاله جرير هو قوله:-

إنـي لأرجـو مـنـك خـيـراً عـاجـلاً
والـنـفـس مـولـعـة بـحـب الـعـاجـل

وقال: إن أصدق بيت في شعر الأخطل هو قوله:-

والـنـاس هـمـهـم الـحـيـاة ولا أرى
طـول الـحـيـاة يـزيـد غـيـر خـبـال

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد
ذخراً يكون كصالح الأعمال

وقال: إنه يقال إن أهجى بيت قاله الحداثيون هو قول الشاعر مسلم بن الوليد صريع الغواني:ـ

أما الهجاء فدق عرضك دونه
والمدح عنك كما علمت جليل

وقال: كان أبو بكر الخوارزمي يقول من غرر أقوال المتنبي قوله:ـ

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والإقدام قتال

وقال: ومن أميز شعر صالح بن عبد القدوس قوله:ـ

وما زرتكم عمداً ولكن ذا الهوى
إلى حيث يهوى القلب تهوي به الرجل

وقال: ومن الأمثال السائرة لمنصور النميري قوله:ـ

أقلل عتاب من اغتررت بوده
ليست تنال مودة بقتال



قوّاد العلم وجبابرة الحرب!!

أنشأ الشاعر أحمد زكي أبو شادي قصيدة طويلة تبلغ نحواً من - ١٢٠ - بيتاً وذلك بمناسبة افتتاح الجامعة المصرية وقد قسمها إلى فصول ذات عناوين مرتبطة بالعلم والثقافة وأهداف الجامعة وشعارها كصرح نهضوي علمي. ومتعلقة بالإشارة إلى الفوارق بين منهج الجامعة وما هو مضاد له.

وفي الفصل الثالث من فصول تلك القصيدة والذي جعل عنوانه «العلم والحرب» مضى أبو شادي فيه يُقَوّمُ الفرق بين العلم والحرب ويرسم البعد الشاسع بينهما ويصور التعاكس والتضاد الظاهر بينهما والواقع بسبب طبيعة كل منهما.

وقد أظهر أبو شادي مساوئ الحرب التي يقودها ويخطط لها قواد يحملون نفوساً شرسة وطباعاً شريرة ويتصفون بصفات عدوانية ليس للرحمة فيها موضع.. كما بين فضائل العلم وماله من آثار حميدة تهدي النفوس وتنير العقول وتجلب الرخاء..

ومن تحقيقاته في ذلك قوله:

المدفع المرهوب يصدأ للبلى
والعلم لن يمشي إليه العار

وفي هذا البيت يظهر واقع التضاد وتميز كل أداة بمفعولها... - فمفعول الحروب ينقضي وتدول دولة الفتوح الظالمة. أما العلم فيبقى نهاراً ساطع الضياء لا يزول ضوؤه ولا تدول دولته طالما وجد متلقياً وطالباً له.

وتـزول دولات الـفـتـوح وتـنـقـضـى
ظـلـمـاً ويـبـقـى الـعـلـم وهـو نـهـار

وتعليم العلم يعد حرباً عادلاً مثلما أن الاستيلاء على البلدان بالقوة يعد حرباً ظالماً وشتان بين مفعوليهما فتلك تحقق الشرف والرقي وهذه تجلب الهدم والبلى. وتلك رحمة. وهذه لعنة.

وتـردّد الـلـعـنـات عـن حـرب مـضـت
أمـم لـمـغـنـمـهـا الـجـدود أغـاروا

بـيـنـا حـروب الـعـلـم تـبـقـى لـلـورى
شـرفـاً تـشـعُّ حـيـالـه الأنـوار

وقوّاد العلم يعمرون الزمان بنور العلم.

قـوّاده مـلء الـزمـان وعُـمُـرهـم
أمـد يـزيـد وكـوكـب دوار

لكن قادة الحروب تذهب حياتهم. ولا يبقى لهم ذكر إلّا كذكر الهشيم الذي تشب فيه النار.

بـيـنـا جـبـابـرة الـحـروب حـيـاتـهـم
مـثـل الـهـشـيـم سـطـت عـلـيـه الـنـار

مـهـمـا قـضـىٰ نـوم الـسـنـيـن بـذكـرهـم
فـالـذكـر لـن يـحـيـا بـه الأشـرار

كانوا الغـزاة فـأصبحوا تحت الثرى
رمـمـا تـجـمّـعُ فـوقـهـا الأقـذار



العرزالة... للغبيبة وللقرارة بمثابة الثلاجة في عصرنا!!

قلت في مجلس ضم نخبة من الذين يزعمون أنهم مثقّفون: ـ كان الناس قبل اختراع الثلاجة يستخدمون القربة لتبريد الماء. والعرزالة لحفظ الغبيبة والقرارة من النتن. فقال أحدهم أو مفوضهم: القربة نعرفها. ولكن العرزالة والغبيبة والقرارة. ما هي؟. قلت: هذا هو الداء الذي نبحث عن علاجه.. فهلا سألت أباك تجد عنده المعنى مع الوصف الكامل لتلك الأشياء؟ قال نريدها منك. قلت العرزالة هي عبارة عن زنبيل يعلق في الهواء في فصل الصيف. وهي لغة صحيحة ذكرها الزبيدي في ـ التاج ـ وابن منظور في ـ اللسان ـ ومن تعريفاتها قولهم: العرزال: البقية من اللحوم. وقيل هو مثل الجوالق يجمع فيه المتاع. وقال ابن الأعرابي: العرزال.. المتاع القليل.

أما الغبيبة فهي فضلة الطعام أو ما يزيد عن الحاجة مما هو مطبوخ فيوضع في العرزال لحفظه من الخراب. والغبيبة لغة صحيحة ذكرها ابن منظور في اللسان. والزبيدي في ـ تاج العروس فقالا عنها: غب الطعام والتمر غباً وغبوباً وغبوبة فهو غاب بات ليلة فسد أو لم يفسد. وخص بعضهم اللحم وقيل غب الطعام تغيرت رائحته. ويسمى اللحم البائت غاباً وغبيباً قال الجوهري: يقال للرائب من اللبن: الغبيبة. ويقولون غب فلان عندنا وأغب: بات. قال نهشل بن جُرى.

فـلـمـا أنْ رأى غـبَّ أمـري وأمـره
وولّـت بـأعـجـاز الأمـور صـدور

ويقول جرير واصفاً ما غبّ وأنتن من لحوم ميتة وخنازير التغلبية. وذلك في هجائه للأخطل النصراني.

والتغلبيّة حين غبّ غبيبها
تهوي مشافرها لشرّ مشافر

صماء عن سُوَر الكتاب وذكره
بعد الهجوع سميعة للصافر

تفتر عن قَرِد المنابت لطلط
مثل العجان وضرسها كالحافر

والقرارة هي بقية الطعام العالق بقاع القدر وهي لغة فصيحة صحيحة. قال ابن منظور في لسان العرب: والقُرارة: ما بقي في القدر بعد الغرف منها. وقرّ القدر يقرها قراً: فَرّغ ما فيها من الطبخ وصب فيها ماء بارداً كيلا تحترق. وكل ما لزق بأسفل القدر من مرق أو حطام تابل محترق أو سمن أو غيره: قُرّة. وقُرارة. وقُرُرَة - بضم القاف والراء.

ومن شواهد الجاحظ في كتاب «البغال» باب - الكودان قول عمرو بن قمئة بن ذريح بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة. وفيه ذكر - القرارة - بقوله:-

يَسَرُ يطعم الأرامل إذ قـ
ـلّص درّ اللقاح في الصّنْبِر[1]

ورأيت الإماء كالجعثن البا
لي عكوفاً على قرارة قدر[2]

(١) يسر: اللاعب بقداح الميسر. الصنبر: شدة البر.
(٢) الجعثن أصل كل شجرة إلّا التي لها خشب.

ورأيت الدخان كالكودن الأصـ
ـحم يَنْبَاعُ من وراء الستر[1]

حاضر شرّكم وخيركم د
رُّ خروس من الأرانب بكر[2]

وتجدر الإشارة إلى أن كلمة: العرزالة. والغبيبة. والقرارة كانت شائعة الاستعمال في جهتنا في منطقة سدير.



(١) ينباع: يجري جرياً ليناً.
(٢) الخروس: البكر في أول حملها.

طرائف أخطلية نصرانية!!

ومن الطرائف التي أوردها الأصبهاني أثناء ذكره لنسب الأخطل وأخباره في كتابه الشهير ـ الأغاني ـ قوله: روي عن رجل من تغلب أنه قال: لحظ الأخطل شكوةً لأمه فيها لبن. وجراباً فيه تمر وزبيب. وكان جائعاً وكان يضيق عليه فقال لها يا أمه آل فلان يزورونك ويقضون حقك. وأنت لا تأتينهم وعندهم عليل فلو أتيتهم لكان أجمل وأولى بك. قالت جزيت خيراً يا بني لقد نبهت على مكرمة فقامت فلبست ثيابها ومضت إليهم فمضى الأخطل إلى الشكوة ففرغ ما فيها وإلى الجراب فأكل التمر والزبيب كله. وجاءت فلحظت موضعها فرأته فارغاً فعلمت أنه قد دهاها وعمدت إلى خشبة لتضربه بها فهرب... وقيل إن هذه الحكاية جرت له مع امرأة أبيه... ـ وروي عن المدائني أنه قال: امتدح الأخطل هشاماً فأعطاه خمسمائة درهم فلم يرضها وخرج فاشترى بها تفاحاً وفرَّقه على الصبيان فبلغ ذلك هشاماً فقال قبحه الله ما ضر إلّا نفسه ـ.

وروي عن المدائني أنه قال: هجت الأخطل جارية من قومه فقال لأبيها يا أبا الدلماء إن ابنتك تعرضت لي فاكففها فقال له هي امرأة مالكة لأمرها. فقال الأخطل:

ألا أبلغ أبا الدلماء عنّي
بأن سنان شاعركم قصيرُ

فإن يَطْعن فليس بذي غناء
وإن يُطْعن فطعنته يسير

متى ما يلقني ومعي سلاحي
يخرّ على القفا وله نخير

ويروى عن ابن عياش قوله: بينما الأخطل جالس عند امرأة من قومه وكان أهل البدو إذ ذاك يتحدث رجالهم إلى النساء لا يرون بذلك بأساً. وبين يديه باطية شراب والمرأة تحدثه وهو يشرب إذ دخل رجل فجلس فثقل على الأخطل وكره أن يقول له قم استحياء منه وأطال الرجل الجلوس إلى أن أقبل ذباب فوقع في الباطية في شرابه فقال الرجل ـ يا أبا مالك الذباب في شرابك فقال:ـ

ألا فاسقياني وانفيا عنكما القذى
فليس القذى بالعود يسقط في الخمر

وليس قذاها بالذي لا يَرِيبُها
ولا بالذباب نزعُهُ أيسر الأمر

ولكن قذاها كل أشعث نابئ
رمتنا به الغيطان من حيث لا ندري

ومن أقوال الأخطل التي تخرجها المبالغة في الهجاء إلى حد غير معقول ولا مقبول وتصنعها إطار طرائف الكلام ونوادره قوله يصف بعضهم بالبخل:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم
قالوا لأمهم: بولي على النار

فتمسك البول بخلا أن تجود به
وما تبول لهم إلا بمقدار

وإمساك البول فيه مبالغة حولت الهجاء من الواقع الذي مهدّ له في البيت الأول إلى مجرد طرفة تفنن في صياغتها. فأعيب بها.

نسبة القصيدة

وكثيراً ما يحصل الخلاف بين الرواة على نسبة قصيدة ما لشاعرها الحقيقي. بل ربما تخول خلافهم في ذلك إلى جدال طويل يحمل في طياته تحقيقات متعددة ومتضاربة لا ندري بأيها نأخذ.

ولا نذهب بعيداً في البحث عن صورة لذلك الخلاف الذي يحصل بين الرواة فهذه القصيدة التي مطلعها:ـ

نالت على يدها ما لم تنله يدي
نقشاً على معصم أوهت به جلدي

قد اختلف في نسبتها إلى قائلها. فمن قائل أنها لأبي الفرج الوأواء واسمه محمد بن أحمد الغساني الدمشقي الذي سبقت ترجمته في الجزء الرابع تحت عنوان «الوأواء ـ هو محمد بن أحمد».

ومنهم أبو منصور الثعالبي الذي أورد بيتاً منها في كتابه «الإعجاز والإيجاز» وقال عنه ـ أي عن البيت أنه أمير شعر أبي الفرج الوأواء حيث جمع خمسة تشبيهات فيه وذلك بقوله:ـ

وأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت
ورداً وعضت على العناب بالبرد

أما شارح كتاب «الإعجاز والإيجاز» فقد عارض الثعالبي في نسبتها للوأواء وقال: ـ الأصح أن هذا الشعر من قصيدة ليزيد بن معاوية ثم ساق في الحاشية عدة أبيات من القصيدة منها:[1] هذه الأبيات:ـ

---

(١) الشارح للكتاب هو: دار الرائد العربي.

سألتها الوصل قالت أنت تعرفنا
من رام منا وصالاً مات بالكمد

ومنها :ـ

وأنشدت بلسان الحال قائلة
من غير مطل ولا كره ولا مدد

واللّه ما حزنت أخت لفقد أخ
حزني عليه ولا أم على ولد

وأسرعت وأتت تجري على عجل
فعند رؤيتها لم أستطع جلدي

وأغمرتني بفضل من عواطفها
فعادت الروح بعد الموت للجسد

هم يحسدوني على موتي فوا أسفا
حتى على الموت لا أخلو من الحسد

والجدير ذكره أن هذه الأبيات كثيراً ما يعشقها المطربون والمغنون إلى درجة أنهم يقتطفون منها أبياتاً ويجعلونها مقدمة لأغنياتهم الغزلية. ومنهم من تغنّى بها كاملة.. ولعل السر في ذلك يرجع إلى رقة أبياتها وعباراتها المثيرة لأذن السامع.



كلمة... حب.. لا تمر على اللسان!!

وكلمة ـ الحب ـ تنساب عذبة من بين الشفاه... بل هي خفيفة على كل شفة وتأبى اللكنة أن تشوهها. كما أن اللثغة تعجز عن خنقها أو عرقلتها داخل الحنجرة فما سمعنا أن ألكناً أو ألثغاً لا ينطق ـ الحاء. والباء ـ نطقاً سليماً وكلمة «حب» ـ لا تمر على اللسان الذي ربما يمزجها بنغمة مستكرهة لا تتفق وجمالها وإنما هي تخرج من الشفتين حال النطق بها بحركة واحدة تنصب في أذن المحبوب دون تعرج أو التواء.. وعليك قارئي العزيز أن تجرب وتنطقها لترى أن ليس للسان الذي قد يجعل الأولوية في بعض الأحيان لعبارة المجاملة الكاذبة أي جهد في صنعها وإخراجها.

وطالما أنه ثبت أن كلمة ـ حب ـ لم يكن لها طريق على اللسان فهي قد تطهّرت من كذب اللسان وتحلقه، ومغالطته. وبالتالي فهي أحد العنوانات الرئيسة التي تترجم واقع الصفاء والوفاء. والإخلاص. والإخاء.

ولقد وقف الكتاب والشعراء أمام مفهوم الحب الذي هو عنوان حقيقي لتوثيق الصلات فرسموا تصوراتهم لعمقه وقوة تأثيره واتساع محيطه فجعلوه بحراً لا ساحل له يسبح في شطآنه المبتدئ ويستقل أعماقه المتمرس. كما وصفوه بأوصاف كثيرة كلها تنعته بنعوت تلامس الوجدان. من حيث المعاناة أو الخوف من الفرق في أعماقه يقول الشاعر محمد طاهر الجبلاوي من قصيدة طويلة عنوانها «الحب» وقد ضمنها ديوانه «ملتقى العبرات» منها قوله:ـ

كنت في قاربي مع الحب طفلاً

وجميع الآمال في أحضاني

ذاك عهدي بأول العشق لكن

ما شقائي ما لوعتي ما هواني

عاصف الحب لم يدع لي براً

أرتجيه وبالهوى أضناني

بين أمواج كالجبال رمى بي

ورياح تشتد في كل آن

قلت عقلي فلم يعرني التفاتاً

صحتُ.. قلبي. فلجّ في عصياني

وإذا ما بليت بالحب فاعلم

إنما القلب والنهى خاذلان

أمل ضاحك ويأس عبوس

أنا والدمع فيهما حائران

يرفعان إلى السماء طروباً

ثم في لجة الأسى يرمياني

وإذا نظرنا إلى الحب من زاوية النفع والضرر في مجال العشق وجدنا بعضهم يرى أنه نقمة ومصدر معاناة: لكن الأكثر يراه نعمة لأنه يفتح أكمام الكلام ويطلق اللسان ويصنع البيان.



اعتراض الكندي على بيت أبي تمام ليس في محله

لقد دار حول اعتراض يعقوب بن إسحاق الكندي خادم الأمير أحمد بن المعتصم جدل بين علماء المنطق وبعض الكتاب والفلاسفة ـ لكن الآراء تكاد تجمع على تصويب أبي تمام وتخطئة الكندي الفيلسوف ـ ونقطة الجدل ترتكز في البيت الذي شبه فيه الأمير أحمد بكرماء وحكماء وفرسان العرب. بقوله:

إقدام عمرو في سماحة حاتم
في حلم أحنف في ذكاء إياس[1]

واعترض عليه أثناء لقائه الكندي بقوله: الأمير أكبر في كل شيء ممن شبهته به.

فكان الرد الفوري من أبي تمام يبرز في بيتين متتاليين لم يكونا من ضمن القصيدة المعدة وإنما هما وليداً حضور الخاطرة وسرعة البديهة. وهما قوله:

لا تنكروا ضربي له مِن دونه
مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأتم لنوره
مثلاً من المشكاة والنبراس

فكان رداً مسكتاً ومفحماً للكندي الذي يبدو لي أنه كان يقصد من

---

(١) عمرو هو ابن معد يكرب. ـ وإياس. هو إياس بن معاوية قاضي البصرة الذي اشتهر بالذكاء والأحنف هو الأحنف بن قيس. وحاتم: هو حاتم الطائي.

اعتراضه مكيدة أبي تمام ليس إلّا - ومنذ ذلك الحين والناس في جدل حول ذلك التصوير المتمثل في مدى صحة تجويز تشبيه الأضعف بالأقوى إذا كان إدراك السامع لا يتجاوز الإحاطة إلّا بوصف جزء يسير من كمال الأقوى - ومن الناس من ينتهي به الرأي إلى أن أبا تمام إنما شبه الأمير أحمد بن المعتصم بمن ذكرهم لا من أجل التقليل من قيمته وقدره. وإنما لأنهم معروفون ويضرب بأفعالهم المثل ولأن الإدراك الحسي لدى السامع لا يتجاوز فوق ما يعلمه ويشاهده.

أما القصيدة التي وقع في عرضها ما وقع مما تقدم ذكره فهي قصيدة تبلغ نحواً من أربعة وثلاثين بيتاً أستهلها بقوله:-

ما في وقوفك ساعةً من باس
نقضي ذمام الأربُعِ الأدراس

وقد وقع ترتيب البيتين اللذين أضافهما أبو تمام في الرابع والعشرين والخامس والعشرين منها. وبعدهما استأنف ما كان قد أعده من مديح للأمير أحمد بن المعتصم. منه قوله:-

فلرب نار منكم قد أُنْتِجَتْ
في الليل من قبس من الأقباس

ولرب كِفْلٍ في الخطوب تركته
لصِقابها حلساً من الأحلاس

أمْدَدْته في العُدْم والعُدْمُ الجوى
بالجود والجودُ الطبيب الآسي

آنسته بالدهر حتى إنه
ليظنه عُرساً من الأعراس



من هو أول من قال: الله أكبر؟!

وعلماؤنا رحمهم الله كانوا يولون كل فن من فنون الحياة عناية فائقة ويبذلون في تحقيقه جهدهم واجتهادهم ولذلك حققوا لنا أصول أشياء لا حصر لها. ونقبوا عن أسباب وجود كثير من الأشياء المحسوسة والملموسة.. ومؤلفاتهم التي أصبحت أساساً ومرجعاً لمعارفنا تثبت أنهم ما تركوا ميداناً إلّا وأجروا فيه أفكارهم وأقلامهم إجراءً لايطلب عليه مزيد. فكم من لفظة وقفوا عندها وأطالوا شرحها. وفتحوا مغلقها.. وكم من كلمة وعبارة بحثوا عن القائل الأول لها وكم من مبهم جاؤوا له بتأويل وبسطوه لنا.

وإذا أردنا أن نتبين فضل جهودهم في جزء من جوانب المعرفة التي خلفوها لنا فإن بحثهم في معرفة المبتكرات اللفظية. ومنهم أصحابها الأوائل يقدم الدليل الواضح على مدى اهتمامهم وعنايتهم بمختلف الثقافات التي يحسن بالمرء الإلمام بها.. ومن ذلك أنهم حققوا لنا أن أول من قال ـ الله أكبر هو نبي الله إبراهيم الخليل.

ففي محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر ـ لعلاء الدين علي وده السكنوراي عن السيوطي أن أول من قال ـ الله أكبر ـ هو إبراهيم خليل الله حين ألقي في النار من المنجنيق فرأى نفسه في الهواء فقال: الله أكبر ـ تعظيماً لله وتوكلاً عليه بقوله علمه بحالي حسبي عن سؤالي.

وـ الله أكبر ـ لها مفاهيم ومعاني كثيرة في تعظيم الله وتقديسه وتنزيهه.. وهي كلمة عظيمة الإيمان يُعظم بها عظيم لا يضاهيه ولا ينازعه في ملكه أحد جل شأنه وتباركت أسماؤه.

ـ ولقد استوحى الشاعر الإسلامي محمد المنتصر الريسوني من تكبيرات صلاة العيد معاني عظيمة أودعها في قصيدة جعل مطالع أبياتها ـ الله أكبر ـ منها قوله:ـ

اللّه أكبر والإنسان في رهق
يعوي بأعماقه ليل من الكبد

اللّه أكبر والإنسان في قلق
تشتاق آماله للعشق والمدد

اللّه أكبر والإنسان في كمد
تصبو مناه إلى روح من الصمد

اللّه أكبر جند اللّه منطلق
تنداح في عينه قدسيه ـ الأحد ـ

اللّه أكبر هذا موكب ألقت
أنواره تتلالا في دجى السهد

اللّه أكبر فتح اللّه مؤتلق
تندى أظاليله بالسهل والبلد

اللّه أكبر نور الحق منتشر
تنساب أضواؤه عرساً على الأبد

اللّه أكبر دين اللّه مزدهر
في نهجه ألق يهدي إلى الرشد



الحَرَق يرى في نفسه أنه أشعر الناس!!

وإذا كان أحد الأعلام البارزين في ميدان الشعر وأحسبه أبا العتاهية إن لم يكن الشافعي قد قال: لو أردت أن يكون كلامي كله شعراً لفعلت ـ فإن هناك شخصاً آخر قد أعاد إلى الأذهان معنى تلك المقولة وهو الشيخ جمال الدين الحضرمي الذي ترجم له محيي الدين العيدروسي صاحب كتاب «تاريخ النور السافر في أخبار القرن العاشر» بقوله: هو القاضي جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك بن عبد الله بن علي الحميري الحضرمي الشافعي الشهير ـ بَحَرَق ـ كان من العلماء الراسخين والأئمة المتبحرين اشتغل بالعلوم. وتفنّن بالمنطوق منها والمفهوم. ومهر في المنثور والمنظوم. وكانت له اليد الطولى في جميع العلوم. وصنف في كثير من الفنون كالحديث والتصوف والنجوم والصرف والحساب والطب الأدب والفلك وغير ذلك. قال: وما رأيت أحداً من علماء حضرموت أحسن ولا أوجز عبارة منه. وله نظم حسن وهو أحد من جمع بين ديباجتي النظم والنثر. فنثره منشور الرياض جاد بها السحاب ونظمه منظوم العقود زانتها النحور والترائب.

ولقد أكد جمال الدين الحضرمي بأنه لا يرغب في اتخاذ الشعر وسيلة لنشر علمه ولو أنه أراد ذلك لما أعياه ذلك لأنه كما قال عن نفسه في قصيدة أنا ذاكر منها أبياتاً فيما بعد ـ يفوق في نظم الشعر الشعراء الذين ملكوا زمامه وشهد لهم النقاد والناس بمقدرتهم الفائقة.. ولكنه كما يقول لا يريد ذلك ولا يطمع في المفاخرة بنظم الشعر. يقول في هذا المعنى من قصيدة طويلة أبياتاً هي تلك التي وعدت بذكرها فيما تقدم.

لو كنتُ مفتخراً بنظم قصيدة
لبنيتُ في هام المجرة منزلا

من كل قافية تروق سماعها
وتُعيد سُحبان الفصاحة باقلا

ويرى لبيد فيها بليد قلبه
حصراً وينقلب الفرزدق أخطلا

وعلى جرير نجرّ مطرف تيهنا
ومهلهلا يُنديه نسج مهلهلا

ولئن تبنا ابن الحسين فإنني
سأكون في تلك الصناعة مرسلا

أظننتَ أن الشعر يصعب صوغه
عندي وقد أضحى لدي مذللا

أبدي العُجاب إذا برزتُ مفاخراً
أو مادحاً للقوم أو متعزلاً

لكنني رجل أصون بضاعتي
عمن يُساوم بخسها متبذّلا

وهذه الأبيات كافية للتدليل على أن جمال الدين الحضرمي يرى في نفسه أنه أشعر الناس.



الشعر مستودع لكل موسم يكون ثم يزول!!

يحل فصل الربيع فتبرض الأشجار وتنبت البذور وتشتبك براعم النبات وتتهامس في منظر لا تمل العين رؤيته. ولا النفس الاستمتاع بمعايشته وتبقى الأشجار والأعشاب مخضرة يغرد الطير على أفنانها ما بقيت أيام فصل الربيع عامرة بالأمطار المنهمرة من السحب الروائح والغوادي. ويبقى شذا الأزهار عابقاً يملأ الأجواء بعبيره. وينعش بعطره الفواح الأرواح ويدخل السرور على الأنفس.

- ولكن ذلك المنظر الربيعي يتلاشى وتتحول أشجاره وأعشابه إلى هشيم تذروه رياح الصيف. وتحرقه أعاصير القيظ المشحونة بحرارة الشمس. فيصبح وكأنه لم يكن وتطويه صفحة النسيان إن لم يكن قد وقف عليه شاعر يحسن التصوير ويبدع في الوصف.

والمنظر الذي تتكامل فيه الصورة الربيعية يبقى في الذاكرة عندما يحظى بقريحة شاعر يعرف كيف يصوغه في أبيات شعرية تتناقلها الألسن. وتكون بمثابة مستودع لحفظ ذلك المنظر الذي كان ثم زال.

والشاعر السعودي الأديب المؤرخ عبد الرحمن عبد الكريم العَبيِّد قد سجل منظراً ربيعياً كان قد وقف عليه وهو في أكمل صورة متناسقة في أبيات جميلة. استهلها بقوله:-

عادت إلى الشاعر المحزون تشجيه

بـقـيـة مـن شـبـاب كـاد يـسـبـيـه

ثم أخذ في رسم الصورة الربيعية التي وقف عليها بريشة شعرية ذاتية التلوين. وذلك بقوله:

ناهيك عن ربوة للشعر حالمة
على ضفاف نديّات مجانيه

مالت إليه كعاب الشمس تلثمه
وضمه الأفق في مجلى دراريه

وافتر ثغر الأقاحي عن بشاشته
ففاح بالعطر ناديه وواديه

وشفّ عن بلبل ما كان يبدعه
وشفّ عن شاعر ما كان يخفيه

حتى أفاقت روابيه معطرة
بطارف من معين الفكر تزجيه

ويختم الشاعر العبيّد تلك القصيدة بما يُثْبتُ أن الشاعر يرسم المنظر الذي يراه في أبيات يخلد بها ذلك المنظر الذي وقف عليه وهو في أبهى حلله.

والشاعر الحرمن يشدو بعاطفة
تجيش بالنفس في أغلى أمانيه

يبلى الزمان وما تبلى له حلل
هُنّ الخوالد من لحن يناغيه



الحياء من الله يمتد إلى الحياء من الناس

في الحكمة - إذا لم تستح فافعل ما شئت - والحياء: حيآن: حياء من الله وحياء من الناس. بل إن الحياء من الناس ممتد من الحياء من الله... ولكن العصاة هم الذين يقيمون على هذا الفاصل لكن الذين يستحون من الناس هم أقرب إلى الإقلاع عن المعصية والدخول في التوبة.. لهذا فإن وقوف الدعاة إلى الله مع الذين يستحون من الناس ربما مكّنهم وحقق لهم توحيد الحيائين في وجوه ونفوس أولئك العصاة فأصبحوا في زمرة الأتقياء الذين وعدهم الله بالمغفرة والأجر الكبير قال تعالى في سورة يس آية ١١ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾.

أما العصاة الذين لا يستحون من الناس فهم الذين قد نزع الله الحياء من وجوههم فأصبحوا يجاهرون بارتكاب المعاصي ويدعون الناس إلى ممارستها علناً وبكل وقاحة وجرأة خبيثة.. وهذه الفئة هي الداء الدوي والمرض العضال الذي لا يمكن علاجه وإنما يحتم استئصاله من جسد المجتمع الذي يعيش في وسطه بلا رأفة أو رحمة.

وأهل الفكر والنصح والإرشاد الذين يحرصون على معالجة قضايا المجتمع الذي يعايشونه يرون في الذي يخجل من الناس إذا ما ارتكب معصية مدخلاً يحققون من خلاله زرع الحيائين في وجهه ونفسه... الحياء من الناس ومن الله.

يقول الشاعر رشيد مصبوع في ديواه «الأثر» المطبوع سنة ١٩١٠م.

إني لأعجب كيف المرء تخجله

إذا أتى المنكرات الناس لا اللّه

ولا يخاف من الجبار عاقبة
لكن من الناس يخشى سوء عقباه

وكما أسلفت فالذين يجاهرون بفعل المعاصي يرون أنهم في حل من أي حرج حيث لا حياء يردهم ولا خجل يوبخهم... ـ والمعجبون بهم يرون أنهم في طيب عيش.

يا طيب عَيْش الذي بالعيب مشتهر
فلا يرى أحداً في الناس يلحاه

وسوء عَيْش أديب ناله وضر
قد أحرقوا دينه ثلباً ودنياه

وفي معنى الحياء يقول صالح بن عبد القدوس: وقيل لمحمد بن عبد الله البغدادي.

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه
ولا خير في وجه إذا قل ماؤه

حياؤك فاحفظه عليك فإنما
يَدُلُّ على فعل الكريم حياؤه

أما أبو العتاهية فيقول فيما يقرب من هذا المعنى المتعلق بالحيا وماء الوجه.

إن للمعروف أهلاً
وقليل فاعلوه

أهنأ المعروف ما لم
تبتذل فيه الوجوه



معنى.. بزخ

ومعنى البزخ في بعض نواحي نجد: الكذب ـ والكذاب الشديد المبالغة في الكذب تلقبه العامة هنا بـ «البزاخ» كما أن الناس هنا ـ وأعني بذلك نواحي نجد ـ يعبرون بالبزخ عن الرجل حينما يسقط على الأرض من مكان مرتفع. فيقولون عند سقوطه ـ بزخ فلان ـ ولقد جرى نقاش حول مفهوم البزخ والبزّاخ فقال قائل: إنها لغة عامية لا أصل لها. قلت: لا أظن ذلك.. فأهل نجد يستخدمونها. وهم لا يستخدمون لغة لا علاقة لها بالفصحى لأنهم قليلو الاختلاط بالألسن الأعجمية ـ فلفظة بزخ إما أن تكون لغة صحيحة صريحة. وإما أن تكون لفظة مؤولة أو وقع فيها تصحيف لفظي لا يخرج بها عن معناها الحقيقي ـ.

وبالبحث عن صحة تلك اللفظة ـ بزخ ـ في المراجع والمعاجم اللغوية وجدت أن لها في لسان العرب دلالات. منها قول ابن الأعرابي: البازخ المفاخر. وفي نوادر العرب: هو يبزخ على فلان: أي يحرّشه.

ومن تعريفات البزخ قولهم: البزخ تقاعس الظهر عن البطن. وقيل هو أن يدخل البطن وتخرج الثّنّة وما يليها. وقيل هو خروج الصدر ودخول الظهر.

وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه دعا بفرسين: هجين وعربي للشرب فتطاول العتيق فشرب بطول عنقه وتبازخ الهجين ـ أي ثنى حافره إلى بطنه لقصر عنقه. ـ والفعل بزخ بزخاً وهو بَزّاخ. وبرذون أبزخ إذ كان في ظهره تطامن وقد أشرف حاركه. والبِزْخُ الوطاء من الرمل

والجمع أبزاخ. وبزخ ظهره بالعصا يَبْزَخه بزخاً. ضربه. وقد وردت لفظة البِزْخ والبزاخ في بعض الأشعار من ذلك قول العجاج واسمه عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن صخر بن كتيف. ينتهي نسبه إلى طابخة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان: من أرجوزة طويلة قوامها ٢٨ بيتاً أظهر في بعضها فضله على الشعراء، ومن يناصبه من العداء.

نعقل مرات ومرًّا نبذخ
إذا الأعادي حسبونا بخبخوا

ومنها قوله واصفاً موقفه من الشعراء:ـ

ولو رآني الشعراء ديّخوا
ولو أقولُ: بزِّخوا لبزَّخوا
لمار سِرْجيس وقد تدخدخوا[1]
ودستهم كما يداس الفرفخ
يؤكل مرّات ومرّاً يشدخ

وقول أحدهم:

أبت لي عزة بذرى بزوخ
إذا ما رامها عزٌّ يدوخ

ومما تقدم نجد أن البزخ معنى من معاني المفاخرة التي يدخل فيها التظاهر بما فوق الحقيقة أو بما هو أكبر من الوقع وهذا نوع من أنواع الخداع والكذب المبالغ فيه.. والكذب ربما دخل مع البزخ في معنى التحريش المتقدم ذكره.



---

(١) مار سِرْجيس اسم بالسريانية ودخدخهم: أذلهم يعني بذلك النصارى.

السفينة بنت البحر

والحديث عن السفينة يطول ويمتد. لأن لها مع الإنسان صحبة عبر آلاف السنين.. أما تحديد صنعها كوسيلة نجاة من الغرق ثم إعدادها وسيلة تجاوز البحر وقطع بها على ظهر فهذا ما سأقتطف جانباً منه من كتاب «تخريج الدلالات السمعية» لمؤلفه العلامة أبي الحسن علي بن محمد المعروف بالخزاعي التلمساني المتوفى سنة ٧٨٩هـ. في الباب السادس والثلاثين منه قال: قال القاضي محمد بن سلامة القضاعي في كتاب الأنباء في أخبار نوح عليه السلام... أوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام بعمل السفينة فكانت من الساح طولها ٣٠٠ ذراع وعرضها ٥٠ ذراعاً وارتفاعها ٣٠ ذراعاً وبابها في عرضها ثلاث طبقات طبقة فيها الدواب. وطبقة فيها الإنس. وطبقة فيها الطيور واختلف في عدد من ركب معه. وقول ابن عباس في ذلك أنهم ثمانون رجلاً وهم. نوح وبنوهم الثلاث سام وحام. ويافث وكنائنه «ولكنه بالفتح: امرأة الابن أو الأخ» ومعهم ثلاثاً وسبعين من ولد شيث آمنوا به.

وقال علاء الدين علي وده السكنواري في كتابه «محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر»: إن أول من اتخذ الفلك نوح عليه السلام ... وفي القرآن الكريم ما يدل على أن نوحاً صنع السفينة بوحي من ربه قال تعالى في سورة هود الآية ٣٦، ٣٧، ٣٨: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

قال وهب: استقلت السفينة في عشر خلت من رجب فكانت في الماء مائة وخمسين يوماً ثم استقرت على الجودي ـ جبل الجزيرة ـ شهراً وخرج إلى الأرض في اليوم العاشر من المحرم وابتنى قرية بأرض الجزيرة ومنهم من حدد الموقع فقال بالموصل بل أن علاء الدين في كتابه الذي أسلفت ذكره والذي فرغ من تأليفه في شهر رجب ٩٩٨ قال وفي الموصل جناح السفينة إلى الآن، وسميت القرية التي بناها ـ سوق الثمانين ـ وهو اسمها إلى اليوم ـ وهو نسبة إلى عدد من حملته السفينة وهم ٨٠ رجلاً. . . ـ وإذا ما عرفنا أن الإنسان ميال إلى تطوير صناعته من حسن إلى أحسن ظهر لنا ذلك واضحاً جلياً في صناعة السفن حيث نشهد الآن السفن العملاقة التي تحمل مئات الآلاف من الأطنان مما يؤكد أن يد التطوير قد أحدثت فارقاً كبيراً بين ما وصفت به سفينة نوح عليه السلام. وسفن عصرنا الحاضر.

ومما قيل في السفينة من شعر وصفي قول الشاعر أبي الشيص المتوفى سنة ١٩٦هـ من قصيدة له:

وبحر يحار الطرف فيه قطعته
بمهنوءة من غير عرّ ولا جربْ

مُلا حكة الأضلاع محبوكة القرى
مُداخلة الرايات بالقار والخشب

عريضة زَوْر الصدر دهماء رَسْلة
سناد خليع الرأس مزمومة الذنب

جَموح الصلا موّارةُ الصدر جَسْرةٌ
تكاد من الإغراق في السير تلتهب

مُجفّرة الجنبين جوفا جونة
نبيلة مجرى العرض في ظهرها حدب

يشقّ حباب الماء حدّ جرانها
إذا ما تفرّى عن مناكبها الحبب

إذا اعتلجت والريح في بطن لُجة
رأيت عجاج الموت من حولها يثب

ترامى بها الخلجان من كل جانب
إلى متن مقتر المسافة منجذب



عيون خلف النظارة

والعين تُعدُّ من أهم الأعضاء التي يطلب الإنسان من خالقه أن يمتّعه بها إذ هي تأتي بعد الأذن في نص الدعاء المأثور: «اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا أبداً ما أحييتنا» وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦].

لذا اهتم الإنسان بالعناية بعينه اهتماماً عمليًّا وفكرياً يندمجان في الاستطباب والتحذير من المخاطر ووصف ما يؤذيها أو يمرضها أو يعميها. فألف فيما يخصها من علاج مؤلفات ورسائل كثيرة في علم تشريحها ومداواتها. ومعرفة ذاتها التي تميز بها الألوان وتدرك بها البعد واختلاف الأحجام. وأسهب في وصف هيئتها وحجمها. ولونها. وطبيعتها.

والعين لا تقتصر مهمتها على ما تؤديه من دور في معرفة الطريق الذي يسلكه صاحبها فحسب وإنما لها مهمات متعدّدة لا حصر لها.

ولو عرجنا على فلسفة الشعراء في وصف العيون لوجدنا معظمهم لا يذكرون إلّا جمالها. وجاذبيتها وما لها من تأثير يحرك الحس العاطفي في نفوسهم فيولد شعوراً يتمخض عن التغزل فيها في قصائد مطولة لدى بعضهم.

ومن تلك الفلسفات التي يخاطب بها الشاعر أصحاب العيون قصيدة قرأتها للشاعر جميل محمود عبد الرحمن ناجى فيها تلك التي تحاول أن تخفي جمال عيونها خلف النظارة الملونة.. منها قوله:ـ

خلف نظارتيك أيّ سرّ عصي

يتخفى فلا يبوح بشيِّ

كل هدب خلف الزجاج سجين

يتشكى بصمته الشاعريِّ

ومنها :

خلف نظارتيك أي موج عنيف

يتباهى بألف شط بهيِّ

اللجين الذي يمور انبساطاً

باليواقيت شدّ كلّ سويّ

ومنها :

خلف نظارتيك.. كان مولد قلبي

خافق النبض في الرضاء الهنيّ

زورق الحلم جال عبر دمائي

ناشراً سطوة الولوج الفتيّ

فإذا اشتط في العيون بريق

حَسْبُ نفسي سطوع وجهي الحيّ

فوق عينين صيغتا من بهاء

فتنة الكون.. والشذى الأنثوي



من نوادر أبي الشيص

وأبو الشيص هو لقب لمحمد بن عبد الله بن رزين بن سليمان بن تميم بن نهشل بن خراسان الخزاعي المتوفى سنة ١٩٦هـ.. ولقد أشرت إلى شيء من بعض أخباره في موضوع تقدم في الجزء السابع من هذا الكتاب ـ الأدب المثمن ـ عنوانه «أبو الشيص هو لقب لمحمد بن عبد الله وليس اسماً له».

وقد عن لي في هذا الموضوع أن أذكر شيئاً من نوادره التي حملتها إلينا الكتب الأدبية التراثية والتي غصّت بكثير من طرائف ونوادر الشعراء وأهل الفكاهة والتي هي أشبه ما تكون في كتب التراث بالملح في الطعام. لأنها تروح من القراءة الجادة وتشوّق في نفس الوقت إلى مواصلة القراءة.

وأبو فرج الأصبهاني كثير ما يتصيّد النوادر والملح... فعن أبي الشيص قال: قال أبو هفان حدثني دعبل أن امرأة لقيت أبا الشيص فقالت له: يا أبا الشيص عميت بعدي. فقال: قبحك الله دعوتني باللقب. وعيّرتني بالضرر.

ويروى أن الحسين بن القاسم الكوكبي قال: حدثني الفضل بن موسى بن معروف الأصبهاني قال حدثني أبي قال: دخل أبو الشيص على أبي دلف وهو يلاعب خادماً له بالشطرنج فقيل له يا أبا الشيص سل هذا الخادم أن يحل أزرار قميصه فقال أبو الشيص: الأمير أعزه الله أحق بمسألته. قال قد سألته فزعم أنه يخاف العين على صدره فقل فيه شيئاً فقال:

وشادن كالبدر يجلو الدجى
في الفرق منه المسك مذرور
يحاذر العين على صدره
فالجيب منه الدهر مزرور

ومن أقوال أبي الشيص على قافية الراء قوله:ـ

تخشع شمس النهار طالعة
حين تراه ويخشع القمر
تعرفه أنه يفوقهما
بالحسن في عين من له بصر

وقوله:ـ

يصبرني قرمٌ براءٌ من الهوى
وللصبر تارات أمر من الصبر

وقوله:ـ

ومن يكن الغراب له دليلا
فناووس المجوس له مصير

وقوله:ـ

تمجّ من أقداحنا قهوة
تضوع بالمسك وبالعنبر
كأنما أقداحنا فضة
قد بُطنت بالذهب الأحمر



القصيدة المؤثرة. والناقد المتميز!!

وإذا جاز لنا أن نشبه القصائد بالعرائس.. والقراء بالعشاق وطالبي الزبجة منهن. ظهر لنا خلاف بين العشاق في تفضيل بعضهن على بعض حيث كل ذوق وفهم ورأي ونظر وتصور خاص به.

وقصدي من هذا التصوير. هو الوصول إلى القول بأن نقاد الشعر ليسوا على درجة واحدة من وجهات النظر أو الإدراك الفكري.. كما أن القصائد ذاتها ليست على مستوى واحد من حيث البناء والمعنى.

ونحن نرى أن مجموعة من النقاد يقرأون ديوان شعر ما ولكنهم لا يقفون جميعاً عندقصيدة واحدة معينة أو قصيدتين أو أكثر. وإن وقفوا عند واحدة مثلاً فإننا نجد كل واحد منهم قد نحا في نقده لها منحى يختلف فيه عن الآخر، ونظر فيها من زاوية لم ينظر من الآخر ناهيك عن اختلافهم في الأسلوب وفن التصوير في التعبير.

ومن هذا المنطلق يكون لكل ناقد قارئ... الأمر الذي يدفعنا إلى طرح فكرة مضمونها تصنيف النقاد حتى يتجه كل قارئ إلى دراسة ما قد اختاره الناقد الذي شاكله في فكره وذوقه واتجاهه.

وبهذه الغربلة للنقاد يتم أيضاً تصنيف القصائد تصنيفاً يجعل منها ما هو فوق النجوم. وهو في قاع الوحل.

وإذا كان لكل وجهة نظر ورأي في تقويم القصائد ونقدها كما أسلفت. فإن القصائد الثائرة في وجوه الطغاة والمنافحة عن العقيدة والناصحة بما فيه صلاح وفلاح الأمة والحاثة على اتخاذ الخصال الحميدة هي التي ترقى بسلم أسلوبها إلى أن تعانق النجوم في علوها..

ـ وفي وصف مثل تلك القصيدة يقول الشاعر محمود مفلح :ـ

وقصائد مثل العرائس مهرها
غال وأخرى ليس فيها مطمع

فوق النجوم تعيش بعض قصائد
والبعض في عفن القمامة يقبع

وأجلّهنّ قصيدة عربية
فيها من الإسلام شمس تسطع

تأبى على أهل الغرور غرورهم
وتشد من أزر الضعيف وتمنع

وتثور في وجه الطغاة وتنبري
للظالمين تؤزهم وتزعزع

وإذا أصاب المسلمين مصيبة
فهي التي من أجلهم تتوجع

وهي التي تأسو الجراح بليلهم
والفجر من جرح القصيدة يسطع

وهي التي تنهلّ في صحرائهم
مطراً وتحفر في الصخور وتزرع



السعادة في صحبة القرآن!

ومهما يكن من أمر فإن المسلم ليس له غناء عن عقيدته والسير على منهج الإسلام ذلك المنهج الذي يضمن السلامة. ويملأ القلب بالطمأنينة والسعادة.

ونحن نجد شعوب الأرض غير المسلمة كيف تعاني من الفراغ الروحي الذي يملي عليها كل جنوح. ويمدها بمعاول هدم الأدب والقيم والأخلاق. وقتل كل فضيلة. واستصحاب كل رذيلة.

والذي زار بعض بلدان تلك الشعوب التي لا تدين بدين الإسلام. ولم تحصنها العقيدة المحمدية لا شك أنه قد رأى من الفسوق والفساد ما يجعله يزداد تمسكاً بعقيدته. والتصاقاً بإسلامه.. كيف لا وقد رأى أن للمرأة صديقاً غير زوجها تتحدث إليه وتمازحه وتبادله الطرف والفكاهة وتذهب معه إلى جهات لا يعلمها زوجها.. وكيف لا مرة أخرى ـ وهو قد رأى المسكرات والسكارى من الرجال والنساء يخلعون ملابسهم ويمشون في الشوارع عرايا بفعل السكر.

إن المسلم إذا رأى أو سمع ذلك الزيغ والعصيان المشرب بالكفر والشكر والضلال حمد الله الذي أضفى عليه سربال الوقار وألبسه لباس التقوى وجمله بحميدات الخصال. وجنبّه الموبقات. و«كرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان» وجعله راشداً وطاهراً متطهراً يتقى الذنوب بالاستغفار ويخشى الآثام بحسن الكلام.

والمسلم الحق حينما يبحث عن السعادة يجدها قريبة منه. إذ هي في كل ركن من أركان الإسلام وفي كل واجب من واجباته. بل هي

في كل تعامل مبنيّ على مبادئ الإسلام وأخلاقه.. وحينما يقول المسلم: أين السعادة؟ يجد الإجابة الدالة عليها تتهافت عليه من كل حدب وصوب. وترتسم أمامه إشارات متعددة تهديه إلى السبيل المؤدية إلى السعادة.

والشاعر المسلم أحمد سالمين بلغصون سأل عن السعادة في قصيدة له قوامها ٢٥ بيتاً فوجدها في صحبة المصحف وقراءة القرآن.. يقول في الأبيات الأخيرة من تلك القصيدة:ـ

وأخذت أقرأ والسكون يلفّني
والآي تلقي نورها بكياني

وانسل دمعي وارتجفت وهزني
خوف لربي الواحد الديان

وتبعثرت شفتي برجوى رحمة
من جود ربي المنعم الرحمان

وتلوت ثم تلوت أروع ما تلى
من أنس هذا الكون أو من جان

وأخذت من آفاق يوسف عبرة
وأخذت درساً في ضيا لقمان

ورأيت أهل النار كيف مصيرهم
ومآلهم في سورة الإنسان

أما الجنان فأهلها ونعيمهم
قد زينت في سورة الرحمان

وتيقنت نفسي بأن سعادتي
وشفاء قلبي صحبة القرآن

العشماوي يصيب مقاتل المواضيع الاجتماعية!!

والشاعر الكبير الدكتور عبد الرحمن صالح العشماوي أشبه ما يكون في منهجه الشعري بصياد البر والبحر ففي البر لا تخلو مخلاته من الصيد الدسم لأنه يعرف ما يصيد ولا يخطئ الصيد الذي يختاره عندما يصوب بندقيته نحوه.. - وفي البحر لا يجتذب شبكته من جوف الماء إلّا وهي مليئة بالنوع الذي يريده من السمك.

- وقصائده التي تدوي من فوق المنابر وفي أجواء الأندية وعلى صفحات الجرائد هن من ذلك المصيد السمين ... وخيالاته المتجلية هي بمثابة أدوات الصيد التي أشرت إليها. وحسبي بخيالاته تلك جرس إنذار .... إلى وجود خطر محدق بالمجتمع.

ومن صيد خياله تلك القصيدة التي جعل عنوانها «ضدان يا أختاه» ولم يقدم لها بأكثر من قوله: - يا فتاة الإسلام هذه صورة مؤلمة لحال بعض المنتسبات للإسلام ممن انتكست لديهن فطرة الإسلام وتبدل في أذهانهن الفهم الصحيح للإسلام.

وهي قصيدة تبلغ نحواً من ثمانية عشر بيتاً قرأتها في العدد ٦٧٠٩ ليوم الاثنين ٢١ ربيع الثاني عام١٤١٢هـ وفيها يصور فتاة تمردت على تعاليم الإسلام وعلى تقاليد المجتمع المسلم في زيها وتبذلها واختلاطها بالرجال والخروج على مفهوم الحشمة التي تتمتع بها المرأة المسلمة الأمر الذي حدا بشاعرنا العشماوي إلى مخاطبتها بتلك القصيدة التي تذكرني بالقصيدة «الدعدية» من حيث ملامح الأسلوب والقافية.

يقول العشماوي في آخر أبيات قصيدة:-

فسألتها والنفس حائرة
والنار في قلبي لها وقد

من أين هذا الزي؟.. ما عرفت
أرض الحجاز ولا رأت نجد

هذا التبذّل يا محدثتي
سهم من الآحاد مرتد

فتنمرتْ ثم انثنت صلفا
ولسانها لسبابها عبد

قالت أنا بالنفس واثقة
حرّيّتي دون الهوى سد

فأجبتها والحزن يعصف بي
أخشى بأن يتناثر العقد

ضدان يا أختاه ما اجتمعا
دين الهوى والفسق والصد

واللّه ما أزرىٰ بأمتنا
إلّا ازدواج ماله حد



من أثنينيات رسالة برد الأكباد. في الأعداد!

كنت قد أشرت في موضوع تقدم في الجزء السابع من هذا الكتاب ـ عنوانه «الثعالبي... لقب وليس اسماً لأبي منصور» إلى أنني سأنقل شيئاً من بعض ما يحويه أحد مؤلفاته وها أنذا ألقي نظرة على رسالة له عنوانها «برد الأكباد في الأعداد» وهي رسالة اشتملت على أقوال مفيدة مقيّدة بالأعداد ـ من العدد اثنين إلى العدد عشرة ـ وهي ليست جملة الأقوال المحصورة في الأعداد لأدباء عصره ومن تقدموا عليه وإنما هي نبذة أراد بها الثعالبي فيما يبدو لي التنويع في التصنيف إيجاد ما يشبع رغبة القارئ من كل لون من ألوان الأدب. فمما حشده من أقوال محصورة في عددين قول: ـ قال بكر بن عبد العزيز: الدنيا شيئان... السعة والدعة. ـ وقال إسماعيل بن أحمد لما دخل نيسابور واستحسنها واستطابها: يا لها من بلدة جليلة لو لم يكن فيها عيبان في نقيص. كان ينبغي أن تكون مياهها التي في باطنها على ظاهرها ومشايخها الذين على ظاهرها في باطنها.. وقال الحسن بن علي المروزي: نعوذ بالله من إمارة النسوان ورئاسة الصبيان. وقال علي بن عيسى: العجز عجزان.. التقصير في طلب الشيء وقد أمكن والجد في طلبه وقد فات. وقال لقمان لابنه: يا بني.. احذر البحر إذا طما والملك إذا غضب. وقيل لأبي الحارث جمين: من يحضر مائدة محمد بن يحيى؟ قال: أكرم الخلق وألأمهم قيل ومن هما؟ قال: الملائكة والذباب. وقال سهيل بن هارون: لا يقدم على الخطبة إلّا اثنان فائق أو مائق.. أما الفائق فثقته بنفسه تنفي عنه كل خاطر يورث الخجل والانقطاع. وأما المائق فإنه لا يبالي أخطأ أم أصاب. وقال:

كتب أبو القاسم الإسكافي عن السلطان إلى بعض الماردين. . استعذ بالله من نزغات الشيطان ونزقات الشبان.

قال الثعالبي: وهذه قصيدة لأبي محمد المطراني الشاشي لم يسبق إلى مثلها في هجاء أبي الحسن عبد الملك بن أحمد الفارسي ومدح أبي جعفر بن العباس البغدادي ـ فمن هجائه لأبي الحسن قوله:ـ

أبو حسين حكى في اللوم أحمده
تشابه الأسودان الفحم والحمم

يا ليته لم يكن أوليت والده
أزرى به الأنقصان الجب والعقم

أوليته جف عن حقن وعن عقر
عن مثله الأولدان الصلب والرحم

يا من إذا هتفت باللؤم شهرته
أغضى له الأشهران الطبل والعلم

وفيها يتحول من هجاء أبي الحسن إلى مديح أبي جعفر بن العباس البغدادي وذلك بقوله:

عوضت عنك أخا مجد بعشرته
صفا لي الأهنيان. العيش والنعم

هو ابن من كان يجري تحت دولته
بأمره الأقطعان السيف والقلم

يكنى أبا جعفر وهو السمي لمن
غدا له الأقويان الدين والأمم

إن فاته تالد الأموال في محن
فعنده الأنفسان المجد والكرم

عنيزة!!

و ـ عنيزة ـ التي سأتحدث عنها ليست عنيزة المدينة العريقة التي تقع في منطقة القصيم بنجد والتي تبعد عن الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية من الناحية الشمالية الغربية بنحو ٣٦٠ كم تقريباً. وإنما هي عنيزة الإنسانة التي عاشت في الجاهلية وخلد ذكرها ابن عمها امرؤ القيس في قصة أستبعد صحتها بالأسلوب الذي رويت به عند التعليق على بيت امرئ القيس الذي جاء ضمن أبيات معلقته:ـ

ويومَ عقرتُ للعذارى مطيتي

فيا عجباً من رحلها المتحمل

ونصه: كان امرؤ القيس مولعاً بابنة عم له يقال لها عنيزة أو فاطمة. وكان شديد الشغف بها ومحاولة السكون إليها. فبينا هو جالس مرّت به فتيات وفيهن ابنة عمه يردن غدير الماء فتبعهن مختفياً. فلما تجردن ودخلن الغدير وثب على ثيابهن فأخذها وقعد عليها وقال: والله لا أعطي واحدة منكن ثوبها حتى تخرج كما هي فتأخذه بيدها. فأبين ذلك عليه حتى ارتفع النهار. فلما خشين فوات الوقت خرجت إحداهن فوضع لها ثيابها ناحية فلبستها ثم تتابعن على ذلك ولم يبق منهن إلا ابنة عمه.. فناشدته الله أن يطرح لها ثيابها فقال: لا والله أو تخرجي فخرجت فنظر إليها مقبله ومدبرة ووضع لها ثيابها ناحية فلبستها ثم أقبلن عليه فقلنا: فضحتنا وحبستنا وأجعتنا فقال: فإن نحرت لكن ناقتي أتأكلن منها؟ فقلن: نعم. فاخترط سيفه. فعقرها ونحرها وكشطها وجمع الخدم الحطب وأججوا ناراً عظيمة فجعل يقطع من أطايبها ويرمي بها

في الجمر وهن يأكلن ويأكل معهن ويشرب فضلة خمر كانت معه ويغنيهن وينبذ للخدم من هذا الكباب حتى شبعوا جميعاً. . . فلما رأى ذلك وأراد الرحيل قالت إحداهن: أنا أحمل طنفسته وقالت أخرى: أنا أحمل رحله. فتقسمن متاع راحلته وبقيت ابنة عمه لم تحمل شيئاً فحملته على غارب بعيرها فكان يدخل رأسه في خدرها ويقبلها فإذا امتنعت عليه أمال هودجها فتقول: يا امرأ القيس عقرت بعيري فانزل - وواضح أن في هذه الحكاية وضع ومبالغة -

ويستمر امرؤ القيس في وصف تلك المسرحية التي لعب فيها خياله لعباً أفرز صورة مبتذلة تتمثل في قوله:

ويومَ دخلت الخدر.. خدر عنيزة
فقالت لك الويلاتُ إنك مُرجل

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً
عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

فقلت لها سيري وارخىٰ زمامه
ولا تبعديني عن جناك المعلل

دعي البكر لا ترثي له من ردافنا
وهاتي أذيقينا جناة القرنفل

بثغر كمثل الأقحوان منور
نقي الثنايا أشنب غير أثعل

فمثلك حُبلى قد طرقت ومرضع
فألهيتها عن ذي تمائم محول

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له
بشق وتحتي شقها لم يحوّل

ضريبة مسقط الرأس... تمجيده!!

ويعجبني الرجل الذي يشيد ببلدته ومسقط رأسه في كل مناسبة. بل يعجبني أكثر حينما تطوح به الأسفار ويرزق في بلد غيره. وتبقى ذكرى مسقط رأسه عالقة في ذهنه وخياله لا تمحوها تجارة أصابها في بلد غيره.

وما تراب بلدته الذي تمرغ فيه حال ولادته وقبل أن يكسى.. وما هواء بلده الذي تسرب إلى أنفه لحظة سقوط رأسه على الأرض من رحم أمه.. وما الماء والطعام الذي غذّي عليه في سن الرضاعة. إلّا دين في ذمته لا يمكن سداده إلّا بأمور كثيرة يلزم بها نفسه.. لعل أقلها ذكره وتمجيده والتصريح بحبه وزيارته زيارة تعيد له ذكريات الطفولة ومراتع الصبا، وتصور له التحوّل الذي طرأ على حياته.. وتجعله يتفقد رفاق صباه فيمد العون لمحتاجهم ويمسح دمعة حزينهم. ويسامر أديبهم.

ويعجبني الرجل إذا كان شاعراً وخص بلده بشيء من قصائده التي تؤهله للدخول به إلى التاريخ من بوّابة واسعة... كيف لا ونحن نقرأ تراجم بعض الأدباء والشعراء والعلماء فنجدها حافلة بذكر بلده وموغلة في الوصف الجغرافي له. بل ربما وجدنا كثيراً منهم قد تسمى باسم بلده الذي ولد ونشأ فيه.

والشاعر الكويتي الجنسية النجدي الأصل سليمان الجار الله يقوم بزيارة لموطن آبائه وأجداده ـ روضة سدير في قلب نجد ليرى ملاعب آبائه واحدة بين الحين والآخر وفي إحدى زياراته أطلق العنان لخياله الشعري فرسم صورة صادقة التعبير عما كان عليه الآباء والأجداد في قصيدة قوامها ثمانية عشر بيتاً أقتطف منها قوله:ـ

وصلنا روضة الأجداد صبحا
وكنا نحوها متشوّقينا

يحن القلب من وجد إليها
إذا ما جاء ذكر السالفينا

فقلت لصحبتي باللّه هذي
مرابعهم بها عاشوا سنينا

وكم مرّت بهم أعوام جدب
بها قاسوا الشدائد صابرينا

فما ذلوا لذاك وما استكانوا
وعاشوا بالكرامة ممسكينا

إذا ما الضيف زارهم تنادوا
وحيوا بالغريب مرحبينا

تصافحه يد وتشدّ أخرى
وكلهم له يتسابقونا

لقد ورثوا خصال الخير ممن
تعالى صيتهم في العالمينا

وبما أن روضة سدير هي بلدي ومسقط رأسي فإني سأتناول شيئاً من تاريخها ونشأتها في موضوع لاحق في هذا الجزء إن شاء الله.



معلومة عن روضة سدير عبر التاريخ!!

في موضوع سابق في هذا الجزء. عنوانه «ضريبة مسقط الرأس... تمجيده» وعدت أن أكتب شيئاً عن تاريخ ونشأة روضة سدير التي تبعد عن مدينة الرياض من الناحية الشمالية الغربية ١٧٠ كم ووفاءً بالوعد أنقل شيئاً مما جاء في مقدمة الجزء الأول من كتابي «الشعر النبطي في وادي الفقي» وفيها قلت: ـ روضة سدير تقوم على أنقاض روضة تعرف بروضة الحازمي الذي نشب بينه وبين بني العنبر الذين يسكنون في أعلى الروضة من الناحية: الغربية الشمالية: قتال انتهى بهزيمة الحازمي وتم القضاء عليه وجماعته وآلت مساكنهم التي تقع في شرقي الروضة إلى الخراب ثم أصبح عبر مئات السنين روضة تنبت العشب والكلأ الطيب فربتها الخيول استطابت رعيها فسميت روضة الخيل بدلاً من روضة الحازمي أما الجهة الغربية الجنوبية من الروضة فقد كانت بلدة مستقلة يسكنها بنو ظبا. وظلت روضة الخيل فعلاً للخيل حتى جاء مزروع بن رفيع عام ٣٦٠هـ وقيل عام ٦٤٠ من حائل ومن قفار بالذات فنزل بلدة الداخلة شمال روضة الخيل بحوالي كيلو متر أو أكثر وأقام غربي الداخلة «مُدينة» تصغير مدينة تعرف حتى الآن بمدينة بن حمرون ويبدو لي أن حمرون لقب لأبي مزروع إذ لم يثبت أن اسم أبيه حمرون وإنما الثابت أن اسم أبيه ـ رفيع ـ فهو: مزروع بن رفيع بن حميد بن حماد ابن الحارث بن عمرو الندي بن عبد الله بن المنذر من جلاجل بن رقيع ـ وقيل رفيع ـ بن مسلمة بن محلم بن صلاءة بن عبده بن عدي بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم بن مر من أدبه طابخة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وقد اختط مزروع الروضة وقيل اشتراها من أهالي الداخلة فأصبحت تعرف بروضة سدير منذ ذلك التاريخ وبعد أن اختطها ذهب إلى قفار وجاء بأهل وبصحبته بن سويط الذي من ذريته آل شارخ وآل بعيجان وآل مطير في الروضة أما أولاد مزروع فهم أربعة سعيد وراجح وسليمان وهلال الذي من ذريته آل دامغ وآل وحيمد وآل كليبي. وقد حصل تنافس شديد على أمارة الروضة بين ذرية مزروع خاصة بين آل أبي هلال وآل أبي راجح ثم يبين آل أبي سعيد مآل أبي راجح وقد كانت لرميزان من آل أبي سعيد فترة أمارة للروضة فكان له إصلاح عظيم فيها تمثل في إنشائه سداً يعرف بالسبعين وهو قائم حتى الآن والسبعون تعني أنه صرف سيل وادي سدير إلى الروضة بسد حجري رائع. تخلله سبعون عبارة ينصرف من خلالها السيل عندما يرتفع منسوبه في الروضة ليأخذ مجراه الطبيعي إلى بقية قرى سدير الواقعة على وادي سدير «وادي الفقي قديما - . . . وعلى ظهر ذلك السد وقفت يوماً عن الأيام فاستوحيت من صموده وصمته قصيدة منها قولي:-

رعــاك الــلّــه يــا وادي ســديــر
فأنت على البسيطة خير وادي

على بطحائك «السبعين» تبدو
مخضبة بأسياف الجلاد[1]

تخبّر عن عزيمة مبتنيها
وعن عمق المحبة للبلاد

---

(١) إشارة إلى أن أهالي القرى الواقعة أسفل روضة سدير قد عارضوا رميزان حينما بدأ بناء السبعين فحصل بينهم وبين أهالي الروضة وقعة انتصر فيها أهالي الروضة وذلك في عام ١٠٦٠هـ وأتموا بناء السد المعروف بـ «السبعين».

معابرها تقاوي مدلهماً
إذا ما جادت السحب الغواد

تصد السيل في أقوى نزاع
وتثنى عزمه للانقياد

ليسقي باسقات قد تنامت
وزرعا قد تهيّأ للحصاد

ويسقي روضة خضراء تبدو
كجنح الليل في الآفاق باد

غثاء السيل يلطم في صخور
تعهد رصها سمح الأياد



من قال شعراً فانتصف منه بنثر

وتحت هذا العنوان «من قال شعراً فانتصف منه بنثر» التقط أبو سعد منصور بن الحسين الآبي المتوفى سنة ٤٢١هـ عدداً لا بأس به من الأشعار التي اعترض سامعوها على بعضها اعتراضاً أخرس أصحابها.. وقلبوا مفهوم بعضها إلى ما يسيء إلى أصحابها. من ذلك ما قيل أن سكينة بنت الحسين بن علي رضي الله عنه سمعت قول العرجي:

يـقـعـدن فـي الـتـطـواف آونـة
ويـطـغـن أحـيـانـاً عـلـى فـتـر

يـنـزعـن عـن سـبـع وقـد جـهـدت
أحـشـاؤهـن مـوائـل الـخـمـر

فقالت للجارية قولي له: ويحك لو طاف الفيل بهذا البيت لجهدت أحشاؤه.

ومن ذلك ما قيل أن علي بن الجهم كتب إلى جارية كان يهواها.

خفي اللّه فيمن قد تبلتِ فؤاده
وتـيـمـه حـتـى كـأن بـه سـحـرا

دعي البخل لا أسمع به منك إنما
سألتك شيئاً ليس يعرى لكم ظهرا

فكتبت له على ظهر الورقة.. إن لم يعر لنا ظهراً فإنه يملأ لنا بطناً.

ومن ذلك ما قيل أن محمد بن الحارث قال كان علوبة بعيد

الخجل صفيقاً لا يكاد يخجله شيء فاجتمعنا يوماً عند المعتصم ومعنا إبراهيم بن المهدي. فلما خرجنا قال إبراهيم لعلوبة.. هل أحدثت شيئاً من الغناء؟ قال: صنعت:ـ

إذا كان لي شيئان يا أم مالك
فإن لجاري منهما ما تخيرا

وفي واحد إن لم يكن غير واحد
أراد له أهلاً وإن كان معسراً

فقال إبراهيم: وإن كانت امرأتك. قال: فانقطع علوبة انقطاعاً قبيحاً وخجل حتى لم ينفع بنفسه ذلك اليوم.

ومن ذلك ما قيل أنه عُرض على بلال بن أبي بردة الجند فمر به رجل من بني نمير معه رمح قصير فقال له بلال: يا أخا بني نمير ما أنت إلا كما قال الشاعر:

لعمرك ما رماح بني نمير
بطائشة الصدور ولا قصار

فقال: أصلح الله الأمير. ما هو لي إنما استعرته من رجل من الأشعريين.

ومن ذلك ما قيل أنه لما قال أرطأة بن سهية للربيع بن قعنب:

لقد رأيتك عرياناً ومؤتزراً
فما علمت أأنثى أنت أم ذكر

قال له: لكن سهية قد علمت ـ وسهية أمه. فغلبه.



ذكريات من الماضي تغرق في تذمر من الحاضر!!

إذا لم يكن الحاضر أفضل من الماضي فإن تذكر الماضي وتمني رجوعه أمر تجنح إليه النفس لا لأنه ماض له ذكريات فحسب وإنما لأنه عنوان لفضيلة تهيج ذكراها وتدعو إلى الحنين إليها. ولكن هيهات هيهات من رجعة إلى الماضي.. إنه قطار قفل رحلته وانتهى ولهذا فإن الذين يتذمرون عن حاضرهم إنما هم يحزنون على ماضٍ ذهب ولن يعود ولم يعد في استطاعتهم الرجوع إليه ومعايشته.

يقول محقق ديوان الشاعر والمفكر الإسلامي سيد قطب في تعليقه على قصيدة لسيد قطب عنوانها «التجارب»:ـ

كثيراً ما يبرم الإنسان بماضيه أو حاضره. ويسخط على تجاربه. ومصائبه. وقد تصور الشاعر شقياً أعفته الأقدار من ماضيه وتجاربه. وأطلقته كأنما ولد في لحظته. ولكنه لم يستطب حاله. لأنه لم يجد ركيزة يركن إليها. وودّ لو أن الأقدار وهبته ماضياً سعيداً. فاستجابت له. ولكنه عاد يشعر بغربته عن ذلك الماضي. ولم تعد هناك قيمة لآماله التي خلفها ماضيه هو وارتبطت به. وعندئذٍ عاد لماضيه في لهفة واشتاق إليه.

أما قصيدة «التجارب» فهي طويلة نسبياً إذ تبلغ نحواً من ثلاثين بيتاً أقتطف منها قوله:ـ

شكا بؤس ماضيه الحفيل الجوانب
بكل مصاب فادح العبء صائب

وضاق به صدراً على طول صحبة
تُمِلُّ ويا بئس الأسى من مصاحب

وقوله:ـ

فأصغت له الأقدار في أمنياته
على أنها لم تصغ يوماً لطالب

وأعفته من ماضيه حتى كأنه
وليدٌ خليٌ القلب من كل نائب

وقوله:ـ

وقد أبصر الآمال عرجاء لم تجد
لها سنداً من ذكريات ذواهب

فعاد إلى الأقدار يشكو صنيعها
ويوسعها في شكوه عَتْبَ عاتب

أما يستطيع الدهر لو شاء نصفةً
له ـ عوضاً من غابر منه خائب

بماض سعيد لم يشب صفوه الأسى
فيحيا على ركنين.. آت. وذاهب



جحظة يتمنّى الوصول إلى أوهام السعادة!!

والتعساء من البؤساء والبائسين من التعساء يتراجعون أمام قسوة الزمان وصلفه وكلّهم حيرة فيما يفعلون.. البؤس يجلب لهم التعاسة والتعاسة تجرهم إلى اليأس واليأس يفضي بهم إلى الفقر والفاقة والعجز والقنوط.

وجحظة البرمكي يعد واحداً من الذين بئسوا ويئسوا وتعسوا.. جاء في ترجمة له أن اسمه أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك. وأنه كان يكنى بأبي الحسن.. قيل إنه كان فاضلاً أديباً صاحب فنون وأخبار. ونوادر وأشعار ومنادمة ومجون. وخلاعة وشجون.. نشأ في حجر الخلافة العباسية وترعرع في مهد العز والرفاهية. ولد جحظة والدنيا زاهرة زاهية وعائلته تفوق الملوك بالكرم والسخاء. حتى بات الخليفة يحسدهم فاضمر لهم السوء فنكل بهم تنكيلاً شديداً... - وأصاب البؤس جحظة كما أصاب أجداده من قبله وبات لا يملك ما ينفقه - وكان لشدة تعلقه بالعلم يمكث طول ليله يراجع النكات الأدبية. ومباحث العلماء والفقهاء ولما لم يجد ما يضيء اغتم غماً شديد وانكب على وجهه من شدة الكدر.. وهو القائل:

وقائلة لي كيف حالك بعدنا
أفي ثوب يسر أنت أم ثوب معسر

فقلت لها لا تسأليني فإنني
أروح وأغدو في حرام مقتر

ويقول في منثور له: لقد طلبنا السعادة في المال فما وجدنا. وفي الحياة فما استفدنا. وفي الفقر فما استرحنا.. - وإذا طلبنا السعادة وأردنا

أن نعيش سعداء نفرت منا واحتجبت عنا وأصبح من المستحيل أن نتمتع بالحياة الحقيقة. والسعادة المرغوبة في هذه الدنيا. ورغماً عن العوارض التي تعترضنا فلا بد من الوصول إلى أوهام السعادة... وإذا لم نعثر عليها فلنطلبها في الخيال الوهمي. لنطلبها في الأمل الفسيح الذي نبهج به ويسطع لمعانه على نفوسنا فيبدد ويجور ظلامها الحالك... وهو القائل: إننا نتوق كثيراً إلى السعادة ولكننا لا نعرف كيف السبيل إليها.. - وكأني بجحظة يردد قول الشاعر اللبناني رشيد مصوبع:-

يقولون إن الفقر ليس بسبة
وإني أرى كل العيوب هي الفقر

ويقول محمود الوراق:

الدهر لا يبقى على حالة
لكنه يقبل أو يدبر

ويقول أيضاً:-

لبست صروف الدهر كهلاً وناشئاً
وجربت حاليه على العسر واليسر

فلم أر بعد الدين خيراً من الغنى
ولم أر بعد الكفر شراً من الفقر

ويقول أبو الحسين الجزار واسمه - يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن علي الشيخ جمال الدين أبو الحسين الجزار:

ولم ألق في بيتي دثاراً أعده
لبرد ولا شيء يرد هجيرا

فأنفخ شدقي إن أردت وسادة
وأفرش ظلّي إن أردت حصيرا

أبو حيان يسخر من مجالس أهل عصره

قرر أبو حيان التوحيدي المتوفى سنة ٤١٤هـ في كتابه «الرسالة البغدادية بأنه كان مولعاً بحضور المجالس ببغداد ـ وصحة هذا الخبر واقع على ذمة أبي حيان لأنه من إخباره عن نفسه. ولهذا فإنه من الجائز أن ما رواه عن تلك المجالس يكون صحيحاً واقعاً وقد تكون مجالساً وهمية أراد بها التشفي بنسبة الأخبار المبتذلة الرخيصة لفئات من الناس.. وقد تكون قائمة على الحالة التي وصفها.. وإن هجاءه للمشاركين في إقامتها صائب ولا غبار عليه.

ومما حكاه عن عقليات أصحاب تلك المجالس ـ وتفنن في عرضها بأسلوب ممزوج بالسخرية التي ترقى إلى مستوى الهجاء المقذع قوله من باب السخرية بالكلواذي: حدثني صديق لي ببغداد. قال: كنت أمرّ في طاقات العكسي فوطيت شيئاً حاراً. فمسسته فإذا هو لين فشممته فإذا هو منتن فذقته فإذا هو مرٌّ: نظرتُ إليه في السراج فإذا هو أصفر. أريته أخي أبا موسى الكلواذي فإذا هو خرا.

وينظر أبو حيان إلى مجلس آخر قد ضم نفراً لا تقل صفاتهم وتصرفاتهم عمن أساؤوا الأدب وخرجوا على الدين وأشركوا بالله. بقولهم هو ثاني اثنين. وثالث ثلاثة. ونقضهم القرآن بالشعر ومحاربة الرسول ﷺ وكسر ثناياه الطاهرة. ونبش قبور المسلمين. ونصب المنجنيق على الكعبة. والسلح في بئر زمزم. وعقر ناقة صالح. إلى آخر ما وقع منهم من كفر وعناد.. وينهي أبو حيان سرد تلك المخالفات التي كلها محاربة لله ولرسله بأبيات ساخرة يطالبهم فيها بالتوجه إلى

الأكل والشرب وممارسة اللهو لأنهم به أولى ولعل فيه ما يصرفهم عما هو أعظم من الكفريات... يقول في تلك الأبيات مخاطباً أحدهم:-

كـل دجـاجـاً وفـراخـاً وجـدا
واشـو حـمـلانـاً صـغـاراً رضـعـا

واشـرب الـراح الـتـي فـي دنّـهـا
شـاهـدت عـاداً ولاقـت تـبـعـا

صَـبَـغَـتْ أيـدي الـلـيـالـي ثـوبـهـا
فـي الـخـوابـي ذهـبـيًّـا مـشـبـعـا

والـغـنـا الـطـيّـب فـاسـمـع مـنـه مـا
يـخـطـر الـتـحـصـيـل ألا تـسـمـعـا

وتـمـتـع بـالـصـبـايـا.. لا تـكـن
مـن أنـاس يـحـظـرون الـمـتـعـا

كـل وجـرد كـل مـا تـمـلـكـه
لا تـدع لـلـخـلـق فـيـه مـطـمـعـا

ويـحـك اقـبـل يـا أخـي مـشـورتـي
إن عـنـدي لـك فـيـهـا مـقـنـعـا

قـبـل أن تـعـثـر بـالـشّـرّ فـلـو
نـشـرت أمّـك مـا قـالـت لـعـا[1]



(١) لعا: كلمة تقال للعاثر. ومعناها: أنعشك الله، وأقامك من عثرتك.

شاعر يرثي نفسه

ولا أقول إن كثير من الشعراء من يرثي نفسه. ولكن هذا النمط قليل بل قليل جداً لأن الداعي إلى رثاء النفس ليس بذات أهمية بالنسبة لمن لا يلتفت لهذا الأسلوب من الرثاء... ـ ولعل الشعراء الذين يرثون أنفسهم يقصدون بذلك عظة خاصة لأنفسهم وتذكراً لما سيؤولون إليه. أو تصوراً لما سيقال عنهم بعد رحيلهم من الدنيا.

وقد يكون رثاؤهم لأنفسهم ضرباً من البوح بما يعانونه من عدم توفر أذن مصغية لأقوالهم في حياتهم فيرثون أنفسهم بما يأملون أن يكون له شأن بعد رحيلهم فيستحثون بذلك قرائحهم في كل ما يتصورون أنهم سيذكرون به. خاصة في كل ماله معنى بحياة من تربطهم بهم علاقة من الناس.

ومن الشعراء الذين سلكوا هذا المسلك المتعلق برثاء النفس الشاعر الأندلسي ابن شهيد واسمه أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن أحمد بن شهيد فمن قصيدة رثا بها نفسه وامتدح الذين سيذكرونه إذا صار تحت الثرى. قوله:ـ

سقى اللّه فتياناً كأن وجوههم
وجوه مصابيح النجوم الزواهِر

إذا ذكروني والثرى فوق أعظمي
بكوا بعيون كالسحاب المواطر

ثم يتصور حديث الناس عنه وماذا سيقولون عنه بعد موته فيقول:

يقولون قد أودى أبو عامر العلا
أقِلّوا فقدماً مات آباء عامر

هو الموت لم يعرف بأجراس خاطبٍ
بليغٍ ولم يعطف بأنفاس شاعر

يحلّ عرى الجبّار في دار ملكه
ويهفو بنفس الشارب المتساكر

وبعد أن يحث معارفه بأن لا يعجبوا مما صار إليه لأن مصيره هو مصير كل حي لا محالة ويخاطب نفسه. ويطلب إليها أن لا تعجب أن يصدق فيها أول أمره آخره. ولكن العجب أن يكون هناك تجاهل منها بوقوع الموت أو غفلة عن تذكره وتصور ساعة الاحتضار ولحظات الرحيل.

وليس عجيباً إن تدانتْ منيّتي
يُصدّقُ فيها أوّلي أمر آخري

ولكن عجيباً أن بين جوانحي
هوىً كشرار الجمرة المتطاير

يحركني والموت يحفر مهجتي
ويهتاجني والنفس عند حناجري

وفي الحقيقة أن ابن شهيد قد حقق ما كان يصبو إليه من وقوف الناس على أثره وقراءة نصوص عباراته الشعرية التي جسد فيها ما مرّ به من واقع.



فلسفة النظر إلى النجم ومساءلته!!

وما من إنسان على وجه الأرض إلّا ويرفع رأسه إلى السماء ودائراً نظره في صفحتها نهاراً وليلاً.. فيرى المبصر زرقة السماء وشمسها المنيرة التي تقطعها مرة كل يوم في رحلة مستمرة من المشرق إلى المغرب.. ويرى في الليل نجوماً منها ما سمي بأسماء حيوانات موافقة لشكلها كالجدي والأسد والعقرب والنسر وما إلى ذلك من الأسماء التي لها شبيه في عالم الأرض. ومنها ما لم يسم. ويرى قمراً منيراً آونة وخافت النور آونة فهو كما نشاهد يتضاءل حتى يصبح هلالاً ثم يعود شيئاً فشيئاً حتى يصير بدراً وفقاً للعلاقة التي تربطه بدوران الكواكب الأخرى كالشمس والأرض... - والذي يهمنا من هذه الإطلالة المرتبطة بالنظر في صفحة السماء هو الرجوع إلى فلسفة الإنسان المعبرة عن رؤيته لها التي يتحقق لنا من خلالها بأن هناك فئة من الناس لا تدرك معنى لذلك غير مفهوم النظر إليها ومجردالمشاهدة البصرية لها. ليس إلّا... - وإن هناك فئة تلقي نظرة اعتبارية ذات عمق تدبريّ وتفكير فلسفي يصل عند بعض الشعراء إلى درجة. مخاطبتها ومناجاتها كأي عاقل يطلب إليه مبادلته الحديث. بل إن بعضهم - وأعني بذلك الكتاب والشعراء - يبوح بغبطة النجوم في علوها وتفردها بمزاياها الجغرافية. والشكلية الجمالية. ويبثها شكواه من عالم الأرض.

وهذه الفئة من الشعراء أو الكتاب هي التي خلفت بمناجاتها تلك أدباً رفيع المستوى وإذا ما أردت أن أضرب مثلاً وأسوق دليلاً على مناجاة الشعراء للنجوم فإن أحدث قصيدة قرأتها بهذا الخصوص هي قصيدة «مناجاة» للشاعر السعودي محمد حسن فقي. منها قوله:-

ألا ليت لي يا نجم هذا التفردا
وهذا الشعاع الحلو يمتدّ سرمدا

وهذا السمو العبقري تناوحت
حواليه آمال فلم تلق مصعدا

ومنها قوله:

أطل علينا أيها النجم إننا
سنمضي وتبقى كالزمان مخلدا

ستبقى على هام السماوات شعلة
ويغتالنا يا نجم عاتٍ من الردى

ومنها قوله:

أيا نجم إن الأرض ضاقت بأهلها
وضاق بها العادون فاستعجلوا الردى

ولم تك لولا البغي يا نجم أرضنا
بضيّقة ما أوسع الأرض مقعدا

ومنها قوله:

ويا نجم أرسل من شعاعك رائداً
إلى الأرض يهدي من تجنّى وأفسدا

إلام يسوم الناسَ خسفا قليلهم
ويرضون هذا الخسف منهم تجلدا



الظـل

ونحن إذا ألقينا نظرة فلسفية على الظل فإننا نخرج بواقع يترجم لنا مفهوم الظل ترجمة تحقق المطابقة لأصله من حيث التجسيد الشامل للهيكل الثابت والمتحرك معاً.. ولهذا فنحن نرى أن ظل كل شيء مثله طولاً وعرضاً واستقامة واعوجاجاً ... أما كيف يوجد الظل؟ فهذا سؤال يجيب عليه الوقوف أمام ضوء أفقي مقابل.

ومن طريف ما يضيفه الظل إلى أدب الفكاهة أن أحدهم كان حارساً يحرس مزرعة يانعة الثمار وكان متسلحاً ببندقية. وفي ليلة مقمرة ترامى إلى سمعه صوت وقع أقدام. فتبادر إلى ذهنه أن لصاً جاء ليسرق من ثمار المزرعة. فحمل بندقيته وأخذ يتجول في أرجاء المزرعة وبينما هو متجه نحو أحد نواحيها صار ظله الذي تشكله ضوء القمر يسير أمامه فظنه لصاً مرتدياً قميصاً قاتم اللون يسير حيث سار ويقف حيث يقف. وبينما هو يقفز أحد الحواجز إذا به يرى الظل يقفز أمامه فأطلق النار عليه ثم قفل راجعاً وقد استولى عليه الهلع والخوف فهرع إلى صاحب المزرعة وقص عليه القصة. فانطلق معه صاحب المزرعة ليرى اللص المقتول. فلما جاء إلى مكان الحادث لم يجد قتيلاً. وإنما وجد أثر الرصاصة في الأرض وليس لأي لص أثر قدم. فقال للحارث: ما قتلت إلّا ظلك.

ومن الشعراء الذين جعلوا من الظل مادة وموضوعاً صنعوا منه شعراً. الشاعر أحمد زكي أبو شادي الذي أنشأ قصيدة ضمنها ديوانه «الشفق الباكي» وجعل عنوانها «ظلي» وقد بلغ بها سبعة عشر بيتاً منها قوله:ـ

أنت يا ظلي خليلي
هل يطيق الصمت خلي

في ظلام الليل تخفى
في مجالي النور تُجْلي[1]

لابساً ثوب سواد
لا تراعي أي فصل

ماشياً إثري وحينا
سائراً قُربي وقبلي

قال أطفال صغار
أنت مثلي. أنت مثلي

أنت حينا رمزُ شكلي
أنت طوراً غيرُ شكلي

خادماً آنا توافي
هازئاً آنا بفعلي

حارساً يأبى فراقي
بين ترحال وحل



(١) تجلي: تخرج عن موطنك. يقال: أجلي عن بلده. بمعنى خرج منها.

بين الأخطل وزوجته الأخيرة!!

وموضوع الطلاق يتخلله أو يعقبه في بعض الأحيان لدى الشعراء خاصة مواقف أدبية تجري في بعض الأحيان مجرى الطرف خاصة إذا طلق الشاعر زوجته وما زال لها في نفسه شوق وهوى فإنه يتمخض عن ذلك بعض التصريحات اللاذعة والتصرفات الذكية التي يعدها الرواة في قائمة النوادر. ويرصدها المؤلفون في أسفارهم.

وصاحبنا في هذا الموضوع هو الشاعر النصراني الأخطل. واسمه غوث بن غياث وأتحفنا الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني عنه بطرفة تتعلق بطلاق زوجته وزواجه من أخرى.. فقد روى أن أحمد بن عبد العزيز قال حدثني عمر بن شبة عن أحمد بن معاوية عن محمد بن داود قال: طلق أعرابي امرأته فتزوجها الأخطل. وكان الأخطل قد طلق امرأته قبل ذلك فبينا هي معه إذ ذكرت زوجها الأول فتنفست فقال الأخطل:ـ

كلانا على هم يبيت كأنما
بجنبيه من مس الفراش قروح

على زوجها الماضي تنوح وإنني
على زوجتي الأخرى كذاك أنوح

وإذا جاز لنا التعليق على ما جاء في البيتين المتقدمين. فإن الأخطل فيما يظهر لم تكن في نفسه بقية حب لزوجته التي طلقها. ولكنه بذكائه ساير زوجته الأخيرة في طريق المكايدة وليس صادقاً فيما قاله في بيته السالفي الذكر.

ونبعد قليلاً عن موضوع الطلاق ومكايدة الزوجات الجديدات لنقف على رد له على الشاعر جرير الذي هجاه بقصيدة مطلعها:ـ

أجـــدَّ رواحُ الـــقـــوم أم لا تـــروُّحُ
نَـعَـمْ كـل مـن يُـعْـلَـى بـحـمـل مـتـرّح

إذا ابـتـسـمـتْ أبـدت غـروبـاً كـأنـهـا
عـوارض مـزن تـسـتـهـلُّ وتـلـمـح

وقد أبعده في البيت الأخير منها بل نفى أن يكون للأخطل موضع قدم في نجد أو غوري تهامة وذلك بقوله:ـ

فـمـا لـك فـي نـجـد حـصـاة تـعـدّهـا
ولا لـك فـي غـوريْ تـهـامـة أبـطـح

فكان رد الأخطل:ـ

ولـكـن لـنـا بـرّ الـعـراق وبـحـره
وحيث ترى القرقور في الماء يسبح

إذا ابـتـدر الـنـاس الـسـجـال وجـدتـنـا
لـنـا مـقـدحـا مـجـدٍ ولـلـنـاس مـقـدح

وإنـا لـمـعـدودون مـا بـيـن مـنـبـج[1]
وغـاف لـعـثـمـان الـحـمـى لـي أفـيـح



(١) منبج: مدينة قريبة من حلب في الشام.. غاف موضع في عثمان.

فهرس الجزء الثامن من الأدب الثمن